العدد: ٣٩ / السنة التاسعة / (نوفمبر - ديسمبر) ٢٠١٣
مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين من إسطنبول

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

عزيمةَ البعث هُبّي

حتى الفيافي القاحلة،
حين تُسقَى بماء تخضرّ...
فالماء يبعث في تلك الرمال حياهْ...
كذا بالعزم الدؤوب تحيا،
أنفسٌ ظنها الناس لا تستردّ الحياهْ...
وبِهَبَّةٍ من ذلك النوع تلقىَ
كلَّ صخر ذائبا إزاهْ...

* * *

أجيال الأمل

ونحن نؤسس لعلم حضاري

الدولة المدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

العدد: ٣٩
السنة التاسعة
(نوفمبر – ديسمبر) ٢٠١٣

لسان الزمان

مجلة حراء تقطع "الفيافي القاحلة"، وتسوق الفكر "طوعًا لا كرهًا"، تستنطق الماضي التليد اعتبارًا، وتعتصر أحداث الحاضر اعتصارًا، ثم ترسم معالم المستقبل المتفائل أملاً، وذلك بروحٍ هفهافة تلوذ بالتعريض وتنأى عن التصريح، وبأسلوبٍ يرتضي التلطُّف والتعفّف، بديلاً عن التخويف والتعنيف.

ولعلَّ الصورة الملوَّنة، والرمز البديع، والزخرفة المتميّزة التي تسند الكلمة والعبارة، وتقرّب المبنى والمعنى، مما أبدعته أنامل المصمّم والمهندس الفنيّ المثابر لـ"حراء" المجلة، وفريقه الملهَم المغامر... لعلَّ ذلك يستوجب منَّا التفاتة وعناية، ويستلزم شكرًا وتقديرًا، وقد شارفتْ المسيرةُ على العدد الأربعين وهو عمر بلوغ الأشدِّ:

فإنَّ صورة "اليد الكريمة، المسنودة بأيادٍ سخيّة، تحمل تُربة خصبة، وتُخرج نباتًا طيّبًا" هي عنوان "أجيال الأمل" للأستاذ فتح الله كولن، وهي في ذات الوقت "أملٌ للأجيال". وإنَّ "سِيَر حياة هؤلاء الأبطال يتجدَّد باستمرار في إطار الإيمان والعرفان والمحبة والعشق والذوق الروحاني، وتَخفق أجنحة فكرهم الواسع كالآفاق سابحة في الرحاب المميزة بين الفاني واللانهائي".

أمَّا الحلم المشروع، في مقال "لديَّ حلم" لـ"سلمان العودة"، فتزيّنه أبواب نورانية سماوية، وأشجار باسقة فارهة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، وهي تهزأ بالممنوع ولا تعرف المستحيل. ولصورة العالم رمزية، وهي تلوّن بحبر جديد، تحملنا خلالها الكاتبة "مهدية أمنوح" إلى سفوح "رسائل النور" حملاً رفيقًا. ولم يغب القلم البديع لصاحب قصَّة الحيوان لـ"عرفان يلماز"، وهو يحكي لنا عن "آكل النمل".

و"الزهراوي" الطبيب المسلم الرائد، لـ"بركات محمد مراد"، و"طبيب يبحث عن مرضاه" لـ"مونية الديغوسي"... كلُّ ذلك يرتسم على شكل ذبذبة القلب في جهاز قياس النبض...

ألا ما أحوجنا إلى أطبَّاء الروح والمعنى، في سياقنا وسباقنا، وحراكنا وحركيتنا.

وقد أجاد صاحب "الدولة المدنية" "سمير بودينار"، في ضبط المفهوم والمصطلح، ضبطًا معرفيًّا محكمًا، علّ الله يحفظ ديننا بمدنيتنا، ويعلي شأن مدنيتنا بديننا، ويفرّج عن شامنا ويماننا، وعن شرقنا وغربنا... فلا فصل ولا فتق، لكنَّه وصل ورتق، بدلالة مقولة الحكيم الخرّيت: "سيأتي يوم يقر فيه الزمان، ومَن في الزمان، على الفلك الذي أمر به تعالى وبأحكام الله القاهرة بالمناهج المعينة في الأخرويات، والمقررات المبينة سلفًا".

وإنّ غدًا لناظره قريب.

المحتويات

أجيال الأمل / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
ونحن نؤسس لعلم حضاري / د. عبد الإله بن مصباح (قضايا فكرية)	٦
واهب الحياة / حراء (ألوان وظلال)	١٠
موازين كلية في اجتهاد التنزيل / أ.د. الشاهد البوشيخي (دراسات إسلامية)	١١
لماذا إبليس؟ / أ.د. عماد الدين خليل (قضايا فكرية)	١٧
لديّ حلمٌ / د. سلمان العودة (أدب)	١٩
بشائر الربيع / حراء (ألوان وظلال)	٢٢
المجتمع الإنساني الآمن من منظور رسائل النور / د. مهدية أمنوح (قضايا فكرية)	٢٣
حكاية آكل النمل / أ.د. عرفان يلماز (علوم)	٢٨
إنني أشهد / محمد مساعدي (أدب)	٣٢
الزهراوي.. رائد علم الجراحة والتشريح / أ.د. بركات محمد مراد (تاريخ وحضارة)	٣٤
هكذا علمتني الرياضيات / أ.د. فؤاد البنا (قضايا فكرية)	٣٨
طبيب يبحث عن مرضاه / مونية الديغوسي (قضايا فكرية)	٤١
الاختبار العسير / د. محمد باباعمي (قضايا فكرية)	٤٤
أعذب الألفاظ / د. ناصر الزهراني (شعر)	٤٧
التربية على قيم النقد والتقويم / د. عبد الحميد عشاق (تربية)	٤٨
الروح المغامر / أديب إبراهيم الدباغ (أدب)	٥١
دراما الحياة / جمال أمين (أدب)	٥٣
الانبلاج الجديد / حراء (ألوان وظلال)	٥٤
صَدَى البُرْدة / عبد الحميد العُمَري (شعر)	٥٥
قيام الليل وأثره الروحي في حياة الإنسان / مصطفى بوزغيبة (قضايا فكرية)	٥٦
الدولة المدنية كما مثلها عصر المبعث النبوي / د. سمير بودينار (قضايا فكرية)	٥٩

www.hiramagazine.com

فتح الله كولن

أجيال الأمل

إن أجيال الأمل باعتبار الزمن الحاضر هم ممثلو العلم والإيمان والأخلاق والفن، وهم مهندسو الروح لمن يأتون بعدنا. وسيشكّل هؤلاء تكوينات جديدة في كل شريحة اجتماعية بتفريغ حرارة الإلهام لقلوبهم المتغذية بالأخرويات إلى الصدور المحتاجة إليها. وإن ضياع حظ كثير من الأجيال في تاريخنا القريب، وهدرهم، بل سقوطهم في الجنون والهذيان، كان بدرجة كبيرة لعدم التقائهم بمثل هذا الجيل الأمل.

لقد عشنا في القرن الأخير، أو القرنين الأخيرين، هزائم متتالية حتى في وسط النجاح.. وكثيرًا ما خسرنا في سياق النصر.. ففي تلك المرحلة التي كنا نفترس بعضنا البعض كالذئاب، خلفنا للأجيال الآتية من بعدنا إرث الحقد والبغض والتعصب السياسي. ففي تلك المرحلة لم يَخْلُ الذين خاضوا في السياسة أو الذين شاركوا فيها من خارجها على السواء، إما من احتساب كل وسيلة لتصدّر فريقهم وكوادرهم وسيلةً مشروعة، وإما من تَوهُّم أن استلامهم للحكم يغير كثيرًا من الأمور أو ينقذ الوطن. ولم يفهم الطرفان يقينًا بأن الوصول إلى المقاصد المرجوة لن يتحقق إلاّ بتحول جذري يعتمد الدوران في فَلَك الإيمان والعلم والأخلاق والفكر والفضيلة. ولأنهم لم يدركوا ذلك، ظنوا أن التغير والانعطاف الكبير المرغوب فيه، هو هذه التغييرات الجوفاء الخاوية من المعنى، والمتسمة بالصورية والشكلية، وتشبثوا متعلقين بأذيال تغيير المكياج والأصباغ والألوان في عملية الترميم التاريخية الكبيرة. وزد على ذلك، أن

بعضهم باع للشيطان فكرة "الوطنية" الراقية بأشياء بخسة وكأنه "فاوست" غرٌّ لأنه غريب عن قيمنا "الذاتية" الحقيقية. ولم يَملّ هؤلاء من الاضطراب المستمر حسب متطلبات الحال من حيث المنافع والمطامح المتقلبة، من أجل صياغة شكل للأمة على صورة معينة يومًا، وعلى صورة أخرى يومًا آخر... بل الأصح على إظهار "الأمة" بهذه الصور الشاذة العجيبة.. فتنفسوا هواء "الطورانية" مرة، وهمهموا مرة بمقولات "الشعب، الفلاح، القروي"، وقضوا وقتًا مع "الأرستقراطية" مرة أخرى، ثم قالوا: "الديمقراطية"، وغمزوا "للشيوعية"، لكنهم لم ينجوا من الهَيْم على وجوههم أبدًا! فاتخذ مثقفونا خاصة، حلم فرنسا، والإعجاب بإنكلترة، والرغبة في ألمانيا، وعشق أمريكا والشوق إليها، حركياتٍ لتفسير الحياة وموانئَ لرسوّ السفائن المبحرة إلى المستقبل، بنَهمِهم المختلط والفاقد للمعايير، وحسب تقلب الزمان.

وكان الحال يقتضي أن تُستخلف الرؤية المشتركة بيننا كأمة، وأعني الدين والعاطفة الوطنية، على القواعد المتينة والرصينة التي تسمو فوق كل الأحلام والمتخيلات وتتجاوز حقائق الأرواح المنفردة، وتعتمد على الإيمان السليم المتين، والفكر المتأصل، والأخلاق المستقرة، والفضيلة المتمكنة من الأرواح. فمثل هذه الحركة تستطيع أن تَعِد الأجيال القادمة بالخلاص المأمول... حركة أخلاقية ثابتة التوجه، منفتحة على الامتداد والتغيير في فَلَك ثرائها الروحي والمعنوي الذاتي، غير متزحزحة عن محور "رضا الله"، موصدة الأبواب تمامًا في وجه المنافع والمطامح. وبعكس الحال، سنعجز عن احتضان الروح والمعنى الخاص "بأمّتنا" ذاتيًا، وإحاطته بالحماية، وإيصال الأمانة إلى الأجيال القادمة بأكمل خصال الأمناء، ما دمنا في انتقال على الخطوط المنحرفة باستمرار، وفي غبش الإيمان المختلط الذي لم يبلغ اليقين في قلوبنا ومفاهيم التوجهات المختلفة والمقاربات الحضارية المتنوعة في عقولنا.

لا يغيب عن العارفين بهذه المراحل المضطربة ما فقدناه، وما ضيعناه من قيمنا الذاتية في الماضي القريب. ولم نكفّ إبّانها عن التفكير بابتكار أسلوب جديد وفلسفة حياة جديدة، تُبعد عنا المفاهيم المختلفة اختلافا بيّنًا، والاتجاهات البعيدة عن بعضها بعدًا شاسعًا، والأفكار المتناقضة تناقضًا كليًّا. لكن هيهات، هيهات. فكم عمرٍ انقضى هدرًا، وما زلنا نسلو بخيال أن نبتكر أشياء جديدة! ويبدو لي عسيرًا أن نجد أسلوبًا جديدًا وفلسفة حياة جديدة بعد اليوم، كما لم نجد في السابق. ذلك، لأننا لا يمكن أن نصل إلى مركّب فكري جديد وأسلوب مبتكر في التعبير عن الذات من دون احتضانٍ لجذور الروح والمعنى في حياتنا الذاتية. لقد فشلنا في بناء نظام فكري جديد وأسلوب مبتكر... بل زد على ذلك، أننا عشنا باستمرار غثيانًا واضطرابًا تحت تأثير مُناخٍ كثير الأشواك، وكأننا مضطرون إلى الإحساس بأشياء عديدة في وقت واحد! وإبّان ذلك، أُهدِرت عبثًا هنا أو هناك فرصٌ سنحت لنا، وطاقات كامنة للقوة والمنعة.

إن أسرع وأقصر وأسلم طريق يوصل الإنسان إلى الحقيقة هو طريق الإيمان المجهز بالعلم والعرفان. ولقد فاز الروح دائمًا أعظم نصر وأعجبه بفضل هذا الطريق. وحيثما افتُقِد الإيمان غيرُ المتغذي بغذاء العرفان، حلّتْ القوة العمياء محل الحقيقة والحقوق.

ومهما بدا علينا وكأننا نعمل شيئًا منذ قرن أو قرنين، فإننا لم نُقِم أثرًا نطمئن إليه أو نُغبَط عليه، يجسد إيماننا المنساب إلينا من أعماق تاريخنا ونمط فكرنا وأخلاقنا وثقافتنا وفننا واقتصادنا. ولئن أُجْريتْ في مراحل معينة مداخلات جراحية تأجيجًا للأحلام أو لأهواء الشباب، لكن لم نسمع إلا جمًّا كثيرًا من الأمنيات الخادعة عن حاجاتنا الحقيقية مثل تفسير العصر وتقييم العلم وتفهم حكمة الوفاق والاتفاق والتغلب على الفقر الذي يقصم ظهرنا منذ زمان طويل. إن نجاتنا من الأفكار الهزيلة ومن هذا التيه الذي يحبسنا في حواسنا فيلهينا، سيتحقق على يد أبطال الإدراك والبصيرة واللدنيات الفاهمين للعصر والعاشقين للحقيقة بشُبوب اشتياقهم للعلم، والمُحْدَودَبةِ ظهورُهم تحت ثقل المعضلات الحقيقية الحاضرة والقلقِ الكامن في المستقبل، والمنعكسةِ دواخلُهم على سلوكهم وتصرفاتهم، والمتنفسين هواءَ قلوبهم، والمتطلعين دائمًا إلى ما خلف الآفاق... أبطال اللدنيات الذين يئنّون بآلام الأجيال إذ يسعون للنهوض بها إلى درجة

معينـة، ويحولـون مسـتقبلها الكـدِر إلى دموع فـي أرواحهم فينوحـون نُواح أيوب ﷺ، ويتقاسـمون معهـا أوجاع يومهم وغدهم، ويَشُـبّون إلى العلى بالشـكر باحتساب لذائذها أنعما مـن الحق تعالى. هؤلاء الذين يسـتلهمون مـن تاريخنا الحي المزدهـر بالألـوان، الممتد إلى مئات السـنوات، ويسـتقوون منهـا، فينفخـون روح صيـرورة الأمـة، أمـة حقيقيـة ومتدفقة بالحيوية، ويشـحنون الشباب بفكر الإيمان والأمل والحركة، ويفتحون تيارات جديدة من حوض فكرنا "الذاتي" المستكين منـذ زمـن طويل في الشِـباك القاتلة للخمـود الرهيب. ونحن كأمـة سـنهرع في هذه التيـارات إلى معابدنا التـي فقدناها في قلوبنـا، فنجهش بدموع الوصال، ونعود إلى مآوينا ومسـاكننا الدافئة كزوايا الجنة، فنلتقي بانعكاسات الجنان التي ضيعناها منذ أمد بعيد، ونكتشـف مجددًا مدارسـنا القائمة على قواعد البحث عن الحقيقة وعشـق العلم، فنتعرف على الوجود كرة أخـرى من خلال منافـذه المفتوحة على الكائنـات... ونزداد حبًّـا للجميـع، ونتعلم اقتسـام كل شـيء، ونحتضن الجميع علـى السـفوح الزمردية لقلوبنا بأخـلاق العيش في اضطراب وقلـق متزايد... ونطفح بمشـاعر الفن والصنعة إزاء الوجود، ونفكر في المناسـبات البشـرية بالأنّـات والخفقات والدموع الحرى، فنعبّر عن خفايا أنفسنا وكوامن قلوبنا.

إن إحياءنـا "بالانبعـاث بعـد الموت" مرة أخـرى، مرتبط ارتباطًا وثيقًا بأطقم عديدة من الأبطال، البالغين أنوار الحقيقة بعـد اجتيازهم آفـاق العلم، والمتحكمين فـي ضبط الرغبات والمتطلبـات البدنيـة ضمـن إطـار الضـرورات، والسـامعين بوجدانهـم دومًا أناشـيد الماورائية تناديهـم إلى الله، المعبرين عنـه تعالـى ببيان بلا حرف ولا لفـظ ولا صوت في هيجانهم ونشيجهم، المتنفسين أنفاس أنسه شهيقًا وزفيرًا.

ولأن هـؤلاء الأبطـال أعـدوا أنفسـهم منـذ البدايـة عبيدًا للحقيقة في رقّ يأبى الانعتاق، فهم لا يكونون أسارى وخدمًا للمطالـب المشـتتة فـي المجتمـع بتاتًـا، بـل يحسـون دائمًا بنيـر العبوديـة للحق تعالى فـي أعناقهم، فيقومـون ويقعدون بملاحظة اللانهاية باستمرار، ويقضون أعمارهم تحت زخّات الإلهام، ويلحون في توسيع وليجة الباب مـع كل إلهام جديد مـن أجـل واردات أخـرى، وفي جهد من أجـل إبلاغ الآحاد إلـى الآلاف بحظوة امتيازهم عن الآخرين، فيتجرعون أذواق ولذائذ وحظوظ البقاء في الفناء، في كل لحظة، وفي كل مرة.

سَيْرُ حياة هؤلاء الأبطال يتجدد باستمرار في إطار الإيمان والعرفان والمحبة والعشق والذوق الروحاني، وتخفق أجنحة فكرهـم الواسـع كالآفاق سـابحة فـي الرحـاب المميّزة بين الفانـي واللانهائـي. رأس مالهـم العلـم والإيمـان، ومنهلهم القديـر المطلـق ﷻ، ومرشـدهم النبي الأعظـم ﷺ، وطريقهم السبيل الأمثل الذي سلكه كل مَن جاء وراح من صلحاء عباد الحـق تعالـى.. يمضون إلى الأبد واثقين بقـوة الدين القاهرة وبعنايـات الله تعالـى المتجليـة دون انقطـاع... وهكذا تختنق مرحلة أخرى من الإلحاد ومدة "الفَتْرة"، وتتهاوى في مهاوي مخالفتها الذاتية للطبـع والفطرة.

لـم يعش الإنسان على مدى التاريخ من غير علم وإيمان، ولـم تقم مدنية من غير معبد ومعبود. وقد مرت فترات جعل الإنسـان أُفْقَه ظلامًا وقتامًا بانحـداره في مهاوي الحرمان من العلم والإيمان. لكن بعد كل سـقوط، يستشعر تعلّقه بالله في وجدانه من نقطة أعمق، فيتوجه إلى حال فوق الحال السـابق تماسكًا ومعنىً وسرعة وجذبًا. فبقاء المدنية وعيشها في فراغ باعتبار المعبد والمعبود، أو الإنسـانية في خلاء باعتبار العلم والإيمـان، حـال موقوت بمدة قصيـرة لا محالة، في الماضي وفـي المسـتقبل. فلـن يُنتزع فكـر المعبد والمعبـود من قلب الإنسـانية، ولن تنفصم عرى البشـر من الله تعالـى تمامًا، إلى أن تطوى السـموات كطي السـجل للكتب وتدك الأرض دكًّا دكًّا... وتقـوم القيامة. ولأن الوجدان منفتح بالأصل على الله تعالـى، فإن ظلمة الآفـاق وقتامها الطارئ أحيانًا تمر سـراعًا كالخسوف أو الكسوف... ويَعقُب الظلمات الضياء، والغروب الشـروق... ويأتـي يوم يَقِرّ فيه الزمـان، ومن في الزمان، على الفَلَـك الـذي أمر به الله تعالى، وبأحكام الله القاهرة بالمناهج المعينة في الأخرويات، والمقررات المبينة سلفًا.

إن الأجيـال الحاضـرة تبحـث فـي كل مـكان عـن ذاتها وعالم وجدانها، والجنان التي أضاعتها. وإن توجّهًا منها بهذا الاعتبار وحده، يكفيها للعثور على بطلها وبلوغها خط الحق. أَوَلَسْتَ ترى الوجدان وقد قَرّ في فَلَك طبيعته وفطرته؟ وأن الله يُسْتَشْـعَرُ به في أنفاس الوجود والصورة واللون في كل شـيء يسيل إلى نفوسنا من مداخل الآذان والعيون والأحاسيس؟

وزيـادة على ذلك، بدأ الإلحاد يندحر مرة بعد أخرى، بل بـدأ بالانحـلال والانهيار، بتهافته وخوائه الذاتي، بعدما سـل أو انتـزع مـن الأشـياء الـروح والمعنى ليسـتغلها فـي الهوى

والرغبة والأحلام... وإبّان ذلك دخلت الأرواح الباحثة عن حقيقتها إلى سياق اكتشاف الذات مرة أخرى. فلا بد -في هذه الحال- أن تفتر تعلقاتنا إزاء الأشياء المعتادة رويدًا، وأن تتعيّن المرجعية بخوارق بوصلة الفطرة التي هي عنوان إحساسنا في القلوب بعجزنا وضعفنا، وبفضل استشعار "مركز الاستناد" و"مركز الاستمداد" في أعماق وجداننا... ومن ثم تنسلخ إراداتنا عما يُضيّق عليها، وتتوجه إلى متطلبات اللانهاية وأمانيها.

وفي هذا السياق أيضًا، يُكسِب الإيمان والعزم -وهما أهم حركية معنوية للنجاح- كل واحد قوةَ روحه اللدنية، فتؤجّج هذه القوةُ الروحية الآمال والإرادات، فتبدد وتبعثر شؤمهم وتهافتهم، وتَعبُر بهم الجسور المتصلة بالصيرورة الذاتية ليصلوا إلى الله تعالى.

فإن أسرع وأقصر وأسلم طريق يوصل الإنسان إلى الحقيقة هو طريق الإيمان المجهز بالعلم والعرفان. ولقد فاز الروح دائمًا أعظم نصر وأعجبه بفضل هذا الطريق. وحيثما افتُقِد الإيمان غيرُ المتغذي بغذاء العرفان، حلّتْ القوة العمياء محل الحقيقة والحقوق... ولا مفر في مثل هذه الأحوال من مواجهة عنف القوة... فيكثر اللجوء إلى السلاح، ويأمر المال فيطاع، ولا يُسمع إلا صوت المعربد، ويُرغّب إلى الرياء وتروج بضاعته. فمن المحال في هذه الأحوال الوصول إلى روح الوجود، والتطلع إلى ما وراء الوجود.

والحال أن حقيقتنا موصولة اتصالاً وثيقًا بروح اللانهاية. ولاستشعار هذا الاتصال والإحساس بما تَعِد به هذه العلائق، يجب علينا أن نبذل تضحيات كثيرة. وجلي للعيان أننا إن لم نتخلَّ عن السعادة الفردية والحظوظ الدنيوية والمقام والمنصب، بل حتى عن مشاعر فيوضاتنا المعنوية، فلا محل للكلام عن مثل هذه العلاقة، وهذا الاتصال. ومتى ما تحققت هذه العلاقة وهذا الاتصال، فستولد دنيا الغد التي يكون "الحق" فيها تاجًا فوق الرؤوس، وتلقى الحقيقة التوقير، ويُعدّ التفكير بالقوة وملاحقة المطامح عيبًا وشينًا.

إن نجاتنا من الأفكار الهزيلة ومن هذا التيه الذي يحبسنا في حواسنا فيلهينا، سيتحقق على يد أبطال الإدراك والبصيرة واللدنيات الفاهمين للعصر والعاشقين للحقيقة بشُبوب اشتياقهم للعلم، والمُحْدَودَبةِ ظهورُهم تحت ثقل المعضلات الحقيقية الحاضرة والقلقِ الكامن في المستقبل.

إننا نحسب أنفسنا سائرين في السبيل، قاصدين عالمًا مضيئًا كهذا، ومنذ سنوات طويلة. ومن دون تكهنات البحث عن أمارات الفجر حولنا، ومن غير الانشغال بالأبحاث السحرية لأسرار دنيا الرياضيات، نقوم بتقييم كل شيء تشير بوصلة أرواحنا إلى صحته وسلامته حسب إرشاد الثوابت الإلهية، فنَجِدّ في استكشاف المشيئة الإلهية ونقاط التقائنا بما تعدنا به تلك المشيئة، وذلك بإرادتنا التي هي أعظم وسيلةِ تعلقٍ بمشيئة الحق، ثم نتقدم سعيًا في هذا السبيل كأبطال راهنوا بحياتهم ووجودهم كله، وذلك من أجل إحياء نمط حياتنا المبارك.

وينبغي على كل واحد أن يقول لنفسه بمسؤولية فردية جادة: "اليوم يوم الفعال. فإن لم أنهض للعمل، فلن ينهض غيري أيضًا" ثم يهمز فرسه مندفعًا إلى مقدمة الصفوف لرفع الراية... من غير أن يقع في منافسة أو غيرة، فاسحًا السبيل لمن في يمينه ويساره في الحركة والسعي أثناء تقدمه لحمل الراية. إن الكثير منا قد أطفأ قلوبنا وصبّ ماء النار في عيون أرواحنا بقسم من أعماله، سواء بعلم أو بغير علم. في هذه المرحلة المظلمة، لم ينتفض أكثرية أبناء أمتنا ليوقد أنوار الحقيقة في جوهره، ولم يتوصل إلى الحركيات المعنوية التي تُعَدّ من حيويات إحيائنا كالماء والهواء والخصب. وإننا نستطيع في حاضرنا أن نسير بالاتكال على الله تعالى واعتمادًا على قوتنا الكامنة، وعلى روابطنا بالأخرويات كافة. وإنّ نظرَنا إلى الأشياء كلها بعين الروح، واستماعَنا إليها بأُذُنه، وإمساكَنا بها بأيديه، وتقويمنا إياها بمحاكمة منفتحة على الإلهام، مرهون بإعادة النظر في هذه القوة الكامنة والروابط بالأخرويات. ونلخص الموضوع بمقترب لنيازي المصري: "لا تبحث عن الروح والمعنى اللذين ينقلانك إلى الصيرورة في خارجك. التفت بِجِيدك واستمع إلى وجدانك، وابدأ من نفسك في السياحة نحو الصيرورة باستعمال عَدَسة ماهيتك". ■

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.

د. عبد الإله بن مصباح*

ونحن نؤسس لعلم حضاري

إننا ونحن ننجز أبحاثنا في مختبراتنا العلمية، غالبًا ما تتبادر إلى أذهاننا أسئلة تتعلق بمدى إسهام فكرنا العلمي في بناء الحضارة الإنسانية. وهل ما ينجزه فكرنا هو على درجة من الاستقامة العلمية حتى تكون نتائجه لَبِنات في إقامة البناء الحضاري؟ وكيف يمكن لهذه النتائج من خلال نسقها العلمي الحالي الموروث عن فكرة التجزيء التي حصرت العلوم بين مجالي الواقع والعقل أن تسهم في هذا البناء، علمًا بأن صرحه ما قام في فترة الإشراق الحضاري للأمة إلا على قاعدة التكامل مع الوحي، تلك القاعدة التي من خلال تركيبتها كان العالِم فقيهًا والفقيه عالِمًا، فكان العلم فيها متكاملاً مع الدين؟

هذه كلها أسئلة تحيّرنا، بل وتؤرّقنا ونحن نخوض غمار تجاربنا العلمية، في زمان أصبح فيه من المعوقات الفكرية والاقتصادية والبيئية والاجتماعية ما إنّ تداعياتِه لَتستدعي منا نضجًا علميًّا فائقًا، ورشدًا فكريًّا رزينًا. فما السبيل في هذا الزمان الذي أصبح فيه العقل عنوانَ التحدي، إلى إعادة وضع قاطرة العلم على مسارها الصحيح المشمول، ليس فقط بالنظرة التنموية ولكن بالأبعاد الإنسانية والحضارية؟

من المعلوم أن العلم الحضاري هو الذي يكون فيه العالِم يرمي من خلال إنجازاته إلى بناء حضارة إنسانية تخدم كل البشر بدون تمييز. أما العلم الذي يكون فيه همُّ العالِم جلبَ المنفعة لفائدة فئة معيّنة من الناس دون الاكتراث بما يجري

في باقي العالَم، فذلك علم نفعي لا يمكن له أن يرقى إلى المستوى الحضاري.

فالتوجه العلمي الحالي بتكريسه لفكرة التجزيء العلمي من أجل التخصص، أورد العالَم موارد خطيرة جعلت الفرد ينحصر في حيز ضيق من مجال المعرفة حجبته عن باقي المعارف.. فهو جزّأ شجرة العلم إلى أغصان متباينة، وفرض على كل باحث أن يتشبث بغصن واحد منها، وأن لا يلتفت ببصره إلى الغصن الآخر حتى يتم توجيه المسار إلى الوجهة التي تمليها مصالحه.

لكن العلم هو أشمل من ذلك بكثير، وأبعد من أن ينحصر في زوايا محدودة بمحدودية التخصصات التي تمليها المصالح. ذلك لأنه رؤية شمولية جامعة ومتوازنة بين الحقائق من شتى التخصصات، القصد منها إيصال الباحث إلى الحقيقة الواحدة التي يحتضنها الكون. أما تلك التخصصات التي تمليها المصالح، فما هي إلا شُعَب من كلية جامعة ذات موضوع علمي واحد عنوانه "الحقيقة". ومهما كانت حقائق تلك التخصصات جزئية غير منسجمة مع هذا العنوان، فإن معارفها ستبقى شاذة مبتورة بعيدة كل البعد عن الكتاب العلمي الجامع للكون، وعن أبعاده اليقينية المطمئنة لنفس الإنسان التي تمكنه من المساهمة الهادفة في البناء الحضاري. وذلك ما تضمّنه نموذج القرآن في بناء فكر الإنسان ذلك البناء الذي ينسجم مع بناء الكون في صناعة الحضارة، تلك الحضارة التي أرادها لنا صانع هذا الكون، لا التي تمليها مصالح الإنسان ومطامعه.

من هذا المنطلق يجب أن نقيم نتائج العلم الحالي. فإذا كان من دواعي الدهشة والانبهار أن نستعظم ما أنجزه العلم في القرن الأخير مما لم تستطع البشرية تحقيقه على مدى عدة قرون من تاريخها، فإن من دواعي التبصر والاعتبار أن نقف وقفة تأمل لنزن بميزان الأمانة والمسؤولية مضامين ما قدمه العقل للإنسان، ونستحضر بعين المشخص مغزى ما آل إليه واقع العلم اليوم. فالعلم ذلك المشعل الذي لا ينطفئ، هو دليل الإنسان في حياته وبقاءُ عمله بعد مماته. فإن هو احتضنته أيادي أمينة عارفة به أشع بنوره وأضاء، وإن هو وقع في أيدي العابثين ألقى بشراراته فأحرق. والعالِم النافع هو العارف بعبء الأمانة وجسامة المسؤولية. أما الخارج عن هذا الإطار فيعتبر مفرّطًا وظالمًا لنفسه وللإنسانية، لأنه بعمله اللامسؤول قد يورد العالَم مآسي وويلات لن يكون الخلاص منها بالشيء الهين.

> **العلم الحضاري هو الذي يكون فيه العالِم يرمي من خلال إنجازاته إلى بناء حضارة إنسانية تخدم كل البشر بدون تمييز. أما العلم الذي يكون فيه همُّ العالِم جلبَ المنفعة لفئة معيّنة دون الاكتراث بما يجري في باقي العالَم، فذلك علم نفعي لا يمكن له أن يرقى إلى المستوى الحضاري.**

إنسان الغريزة والأنانية

فالمصالح التي توجه مسار العلم الحديث، باتت تَعتبر العقل مركز قياس كل شيء ومرجعية أي تحليل أو معالجة، لدرجة أن هاجس السيطرة الذي أصبح يملي توجهات هذه المصالح، جعل الإنسان يُشهِر الحرب على كل مكونات الطبيعة. فحُرِم من لذة الإدراك الفعلي لحقيقة الوجود، ومن نعمة الاستيعاب الصحيح لفلسفة الحياة والموت. وتحددت بذلك معالم البحث العلمي برسم دائرةٍ عزلته عن باقي المقومات الراقية للطبيعة، وألزمته التقيّد بمحدودية منافعها الاقتصادية والاجتماعية. فتصدّر العالمَ إنسانُ الغريزة والأنانية وغُيّب عنه إنسان القيم الأخلاقية.

هذا ما آل إليه واقع العلم اليوم لما غَيّب عن ساحته الفكرية حقيقةَ المسار الموروث عن الماضي والمرتبط ارتباطًا جذريًّا بأبعاد الحياة الإنسانية ومستقبل شعوبها، فضَرب على هذا الموروث بطوق من حديد جعله يتنكر لكل الأعراف الإنسانية، بل ويخون بكبريائه وسخريته الأمانة العلمية.. فنهل من علوم السابقين، ونسب إلى نفسه كل الابتكارات دون أن يعترف بفضل الأولين، متناسيًا أن ما وصلت إليه إنجازاته فيه نصيب كبير من إرث الماضي. فكان ذلك كافيًا لفرض قطيعة جذرية مع الماضي قصد صنع مستقبل مُبهَم تساق فيه العلوم إلى واقع تُملِي توجهاتُه مطامعَ الإنسان وغرائزه.

في ظل هذا التوجه الخانق ظهر عالَم متقدم يستحوذ

على كل شيء، وعالم متخلف سمي عالمًا ثالثًا عالة على من سواه. وبسبب هذا التوظيف المُفرِط للبحوث العلمية في خدمة مطامع السيطرة والتسلط، حلت بالعالم نكستان أثرتا في مصيره تأثيرًا عميقًا: الأولى تجلّت في حدوث الحربين العالميتين الأولى والثانية، اللتين أنتجتا تصاعدًا مهولاً لم يَسبق له مثيلٌ لوسائل تدمير الأرض والإنسان، والثانية تمثلت في الاستعمار الذي خلّف تدهورًا خطيرًا في أوضاع العالم الثالث، وتناميًا غير مسبوق للأحقاد الاجتماعية.

هكذا في عالم تلاشت فيه أحكام الله، وحُكّمت فيه المصالح والأهواء وقع تبذير الطاقات فيما لا يُجدي نفعًا على البشرية، كالسباق على التسلح الذي لبّس الأرض غطاء نوويًا قادرًا على محو الحضارة الإنسانية والقضاء على العنصر البشري في هنيهة من الزمن. فلئن كان مفعول قنبلة هيروشيما وناكازاكي قد أحدث كارثة بشرية وبيئية في اليابان سنة ١٩٤٥، فإن سنة ١٩٦٢ شهدت توقيع بروتوكول الموافقة على صنع القنبلة النووية. فشرّع العالمُ لنفسه هذا العمل تشريعًا جعل السباق على التسلح يتصاعد حتى بلغت ميزانيته ما يعادل عدة أطنان من المتفجرات فوق رأس كل إنسان يقطن الأرض. والعالم المتقدم مشغول ببحوثه واهتماماته بروعة التسلح، بينما الملايين من سكان العالم الآخر يموتون جوعًا ومرضًا واضطهادًا.

وها هي المؤشرات الأولى على آفة هذا التوجه العلمي المُعوَجّ، بدأت تظهر من مخلّفات ما أنتجته يد الإنسان الأثيمة لما كانت الانطلاقة العلمية غير رزينة، والنيةُ في العمل غير سليمة. إذ بعد انهيار المعسكر الشرقي وانتهاء الحرب الباردة، وجدت الدول المصنِّعة نفسها -والعالم معها- أمام تحد كبير بسبب ما تشكله هذه الترسانات الهائلة من الرؤوس النووية من خطر على الأرض والإنسانية. فالتخلص من هذه الأسلحة صار هاجسًا يوميًّا في حياة الناس، والفعالياتُ الإنسانية والبيئية كلها تطالب بإزالة هذه الآفة التي تهدد حياة الناس ومستقبل البشرية. وأخيرًا أدرك العالم هذا الخطر، وقرر التقليل من عدد الرؤوس النووية، لكن ذلك اصطدم بعائقين كبيرين؛ أولهما مادي حيث يتطلب تدمير رأس نووي واحد ما يزيد على المليون دولار، والثاني بيئي يكمن في كيفية التخلص من النفايات المترتبة عن هذه السموم، خاصة وأن المواد المشعة التي تحتوي عليها لا تتلاشى بسهولة مع الزمن، وليس هناك إمكانية للتخلص منها.

الأخلاق ضرورة في العلم

هذا ما جناه العلم على البشرية لمّا جُرد من مقوماته الأخلاقية. فلربما وصل العلماء المسلمون في عهد إشراقهم الحضاري إلى شيء من هذه الاكتشافات قبل غيرهم، لكن ما يمليه الضمير الحي وما تقتضيه ضوابط الحكمة، قد يكون أوجب وَأْدَ هذه المُهلِكات في مهدها ضمانًا لأمن الأرض وسلامة ساكنيها. فقد كان جابر بن حيان -وهو أب الكيمياء باعتراف العالم وهو العالم الفقيه- يوصي بعدما اطلع على خطورة علم الكيمياء قائلاً: "لا تعلّموا الكيمياء إلا لمن تأمنون دينه وخلُقه". وكأننا بصدد وصية من أب في زواج ابنته هو مطالب بوضعها في يد أمينة. وذلك أسمى تعبير عن مدى مسؤولية العالِم على تحصين العلم ضد أي عبث قد يؤذي الناس أو يفسد معايشهم. وقبل ذلك كان رسول الله ﷺ يوصي في الدعاء بأن نسأل الله "علمًا نافعًا". لأجل ذلك حرص الإسلام كل الحرص على الأخلاق في العلم لإعداد الأمة التي ستحمل الأمانة وتؤدي الرسالة، لأن الاستقامة العلمية هي التي تصون الحضارة من الدمار، وبدونها لا تنهض الأمم ولا تقوى مهما بلغت من العلم. فوا أسفاه على ما آل إليه العلم لمّا جُرِّد من الإيمان، ويا حسرتاه على ما فَرّط فيه الإنسان من عطاء جامعات قرطبة وبغداد وفاس وغيرها يوم كانت العلوم تشع بنورها فوق القارات الثلاث بثقافة ترتكز على دعائم الحكمة والإيمان لا على تقنيات الدمار والطغيان.

فإذا نظرنا إلى الماضي المشرق لأمتنا، سنجد أن العالم الإسلامي ما كان ليسبق إلى تأسيس الجامعات في القرن الثامن الميلادي في قرطبة وفاس وتونس وبغداد وغيرها، والتي كانت مهد بناء الحضارة الإنسانية لولا وجود تلك النظرة الشمولية لأبعاد الحياة المبنية على تحرير الفكر من قيود الاستهلاك وإقحامه عالم البحث والاجتهاد في مضامين كل إنجاز وعواقب كل إبداع. فبذلك تضاعف البحث العلمي، وظهرت الفِرَق والتيارات المتنافسة التي ساهمت في بلْورة العلوم وعملت على اكتشاف آيات الله التي هي جزء من عبادته. فاقتحم الإسلام ساحة العلوم الفسيحة من مختلف أبوابها، واضطر العلماء لضرورة فهم القرآن وتفسيره إلى البحث

في علوم الرياضيات والفلك والطب والطبيعيات والهندسة وغيرها... كما تطورت مناهج الاستقراء والاستنباط والتوثيق لما في ذلك من ضرورة لضبط العلوم وتدقيقها. واستُعمل المنهج التجريبي للاستدلال على صحة الأشياء بالملاحظة والفرضية والتجربة والبرهان عملاً بقوله ﷻ: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(النمل:٦٤).

وهذا هو الأصل الذي يجب أن ترتبط به الفروع. فأمام هذه القطيعة المأساوية بين أمجاد ماضي المسلمين المشرق ومآسي حاضرهم المؤلم، وانطلاقًا من هذا الكمّ الهائل من الإنجازات المسخرة للإنسان، وجب على ذوي النيات الصالحة -بما مكنهم الله من وسطية- أن يعوا حق الوعي مفهومَ ذلك التحدي الذي لابد هو آت، فيثبتوا مكانتهم بالخروج من نفق الاستهلاك العلمي المظلم إلى فضاء البحث العلمي المشرق، فيطرحوا البديل داخل هذه المتغيرات العالمية قصد إيجاد الحلول لما يعيشه العالم من تخلف أخلاقي وفراغ روحي، وإعادة الاعتبار لمعنويات العلوم حتى يتحقق مفهومها الحضاري العالمي ويتوضّح نهجه المتميز في تعليم أسس العلم ومقاصده. فالوقائع التي سجلها العالم في عقوده الأخيرة، والتي سطر هذا المقال بعضًا من تداعياتها، تُظهر مدى احتياج العلم للدين، وكيف يبقى ميدان البحث العلمي المتنور مادة خصبة لمد الجسور بينهما، وسدّ الفجوة التي تفصل الواقع الحالي للعلم عن مساره الحضاري.

العلم هو دليل الإنسان في حياته وبقاء عمله بعد مماته. فإن احتضنته أيادي أمينة عارفة به أشع بنوره وأضاء، وإن وقع في أيدي العابثين ألقى بشراراته فأحرق. والعالِم النافع هو العارف بعبء الأمانة وجسامة المسؤولية. أما الخارج عن هذا الإطار فيعتبر ظالماً لنفسه وللإنسانية.

الحاجة إلى بناء نهضة علمية حضارية

وهكذا نجد أن الحاجة إلى انبعاث نهضة علمية جديدة عند المسلمين أصبحت اليوم ملحة أكثر من أي وقت مضى، نظرًا لما يسجَّل من انحرافات خطيرة عن المسار العلمي الصحيح وعن أبعاده الحضارية. إذ لا يمكن لفكر علمي أن يكون حضاريًّا ما لم يَقُم على أسس الاستقامة العلمية. ولا يمكن لعلم بشري أن يستقيم ما لم يَنْبَن على قاعدة تتكامل فيها عناصر الواقع والعقل مع الوحي وفق الدوائر المعرفية الثلاث:

١- دائرة المحسوسات التي تشمل الواقع الذي هو عالَم الشهادة ومفتاحه الحواس.

٢- دائرة المعقولات التي تشمل المغيب عن الحواس الذي لا يدرك إلا بقوة الفكر وهو عالم الغيب النسبي ومفتاحه العقل.

٣- دائرة الإخباريات التي تشمل المغيب عن الحواس وعن العقل الذي أخبر به الوحي وهو عالم الغيب المطلق ومفتاحه النقل.

وبقدر ما تتنامى هذه الدوائر المعرفية الثلاث في وجدان الإنسان بقدر ما يترقى في درجات الكمال العلمي، وبقدر ما تتعاظم مجالاتها في إدراكه بقدر ما ينال من العلم النوراني، حتى إذا تداخلت نُطُقها وتمازجت معالمها، شكلت بينها فضاء متجانسًا للعلم تتكامل فيه عوالم الواقع والعقل والوحي في قراءة تفكّرية للكون هدفها بناء فكر علمي وعاؤه الإنسان الكامل. ومن هنا يجب أن نوقن بأن العلم لا يكتمل إلا إذا نُزّلت دوائره المعرفية الثلاث، تنزيلاً متوازيًا على الزوايا الثلاث لمثلث متساوي الأضلع. أما إذا تم التنزيل على زاوية واحدة أو زاويتين من هذا المثلث دون الأخرى، فسيختل توازنه ويميل إلى ذلك الطرف، وذلك هو مفهوم التطرف.

وهذا يدلنا من خلال بناء العالم الذي يبدي -كما رأينا- جزءًا منه واقعًا، وجزءً ثانيًا معقولاً، وجزءً ثالثًا منقولاً، على أن الإحاطة العلمية لا تتأتى إلا من خلال توحّد هذه الدوائر الثلاث. لأن في ذلك التوحّد ستتجانس خصائص كل دائرة مع خصائص الدائرة الأخرى، مما سيفسح المجال أمام حرية تلاقح المعلومات فتتزاوج عوالم الواقع والعقل والوحي، وتضمن للإنسان التفتح على مقومات الكمال التي من أجلها خلق.

الاستهلاك العلمي والنماذج المستوردة

فهذه إذن هي قاعدة الأساس في بناء نهضة علمية حضارية.

وقد تتحقق هذه النظرة إذا التزم كل باحث مسلم بعدم الركون إلى مجانية الاستهلاك العلمي لمنجزات الغير، والرقي بأعماله إلى حقيقة البحث المنبثقة من استعمال العقل في فهم الواقع وإدراك الحق فيه وتحصيله على حقيقته. لأن الباحث، بركونه إلى استيراد منجزات الغير واعتمادِها نماذجَ جاهزةً لصياغة مستلزماته، يكون قد استعمل الاستنتاجات التي كان من المفروض أن يصل إليها عن طريق الاستدلال المنبثق من واقع بحثه مكان الوسائل المعتمدة في البرهنة والإثبات. فيكون بذلك إنما عمل على تجميع الأجزاء وتركيبها دون الإحاطة بأسرار صنعها ودقائق نظمها، مما يفوّت عليه فرصة الإحاطة بحقائق الأشياء عبر التدرج في مراحلها، ويُحدِث في بحثه فجوات أكثر ما تجدها تُملأ بالنماذج المستوردة. وهو أمر لا يستقيم الفكر العلمي به ولا يتقدم؛ إذ يُقحِم العقلَ شيئًا فشيئًا عالم الجمود فيصير محكومًا بعدما جعله الله حاكمًا، ويعود تابعًا وهو الذي يجب أن يكون متبوعًا.

الشيء الذي يستوجب اليوم أكثر من أي وقت مضى، نَبْذ التقليد بعرض كل معروض على محك التجربة المدققة، وإخضاع كل وارد لميزان العقل والنقد البنّاء. فإذا تجاوز الأمر مستوى الإدراك العقلي للباحث ونكث في قلبه منه نكث، فلا يقبل منه إلا بشهادتي الكتاب والسنة. وليستفتِ قلبه، فإن العقول إذا كانت تتكامل في صناعة العلوم فإن القلوب تتفاضل في صياغة الفهوم. وما عصم الله عقلاً من التقصير والزلل، ولكن بالتقوى يحصّن سبحانه القلوب من العلل فلا تقبل من ضرر بعلم ولا خلل.

ولذا، وجب وضع استراتيجيات موحدة تكون من أولى مهماتها العمل على إعادة تفعيل العلاقة بين أهل النقل وأهل العقل على مختلف توجهاتهم الفكرية والعقدية، وكذلك العمل على تفعيل ثقافة الانفتاح على الآخر لبناء جو من الشراكة العالمية يرمي إلى الحوار الديني والتفاعل الثقافي. وهذا يتطلب وضع خطط وبرامج نوعية تصاغ على مستوى المؤسسات العلمية والثقافية والأكاديمية تكون في صلب التوجهات التنموية المرتبطة بمسيرة التطور والتحديث. ■

(*) كلية العلوم، جامعة ابن طفيل / المغرب.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

واهب الحياة

واهبُ الحياة إنْ شاء،
انْقلب الموتُ حياةً، والليلُ نورًا،
والزهر المصوِّح بالرُّواء فاض،
ودبَّتْ الحياة، والربيع سرى؛
وفي كُلِّ الدُّنَى، حياةً سترى...

* * *

أ.د. الشاهد البوشيخي*

موازين كلية
في اجتهاد التنزيل

هنـاك فرق بين الاجتهاد في الاسـتنباط العام، وبين اجتهاد التنزيل. عندمـا يُنَـزَّل النص على الواقع، هناك فهم لهـذا النص مطلقًا دون علاقة بزمان بعينه ومكان بعينه وإنسان ومجتمـع بعينه، وهناك فهم لهـذا النـص وهو يتجه إلى مجتمـع بعينه وزمـان بعينه ومكان بعينه، والذي أرى أنه يفي بالمقصود في حدود المساحة المتاحة، هو الأسس الخمسة التالية:

١- تكبير الله جل جلاله

المقصـود مـن هذا الأسـاس، أن تكون التربية الإسـلامية قائمة على أسـاس أكبرية الله عز وجل فـي القلـوب، أي امتلاء قلـب المؤمن بأكبرية الله جل جلاله. وإذا امتلأ القلب بهذه الأكبريـة، فـإن ما سـوى الله يصغر، يصغر كلُّ مـا صغّره اللهُ، ويكبـر كلُّ ما كبّر اللهُ، إلـى جانـب كونه هو الأكبر سبحانه وتعالى، فالأمور كلها تصير في علاقة مع الله.. هو الأكبر.. فلا يُخشـى شـيء إلا في علاقته بالله جل جلاله؛ يُخشـى من الذنب، يُخشى مما خَوّف الله منـه.. فلا يُحَبّ شـيء حبًّا كبيرًا إلا إذا أمر الله بحبّـه: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُـمْ وَأَزْوَاجُكُـمْ وَعَشِـيرَتُكُمْ وَأَمْـوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَـوْنَ كَسَـادَهَا وَمَسَـاكِنُ تَرْضَوْنَهَـا أَحَـبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُـولِهِ وَجِهَـادٍ فِي سَـبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِـيَ اللهُ بِأَمْـرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْـدِي الْقَوْمَ الْفَاسِـقِينَ﴾(التوبة:٢٤). فمقتضى أن الله أكبر، هو

أن يُحَب أكثر من أي محبوب، ويُرهَب أكثر من أي مرهوب: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ﴾(التوبة:١٨)؛ لم يخش إلا الله وإلا ما عمر المسجد، إنما عمره بالشبح، ولا قيمة لهذا الشبح إلا إذا امتلأ بالإيمان، أي إذا كان عامرًا بأكبرية الله ﷻ.

إن الله ﷻ حين سوّى آدم قال: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(ص:٧١-٧٢)، فالإنسان إذن مِن طين ومِن روح، والذي يؤثّر ويحرّك ويوجّه هو "الروح" لا الجسد، وكل الخصائص التي للجسد سببها "الروح"؛ فحين يموت الإنسان، تبقى العيون لكنها لا ترى ولا تبصر، تبقى الآذان لكنها لا تسمع، يبقى اللسان لكنه لا ينطق، يبقى العقل لكنه لا يفكر... يبقى الجسد كله لكن لا توجد فيه خاصية من خصائص الحياة، إذ يَرجع إلى أصله، يتحلل كبقية الموجودات في هاته الأرض. الروح لا تفنى، وهذا يعني أننا روحًا خالدون وأجسادًا فانون، والموت إنما هو انفصال بين عنصرين التقيا قبلُ، ثم انفصلا بعدُ، ثم سيلتقيان بعدُ: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾(غافر:١١) كما يقول الظالمون لأنفسهم.

المسلم ليس شخصًا عاديًا في هذا الكون، ولكنه لا يعرف معناه للأسف.. إن المسلمين ألفاظ لا تعرف معانيها؛ إذ المسلم موقعه الشهادة على الناس، والمسلم هو المنظِّم والموجه العام للبشر في الكرة الأرضية.. المفروض أنه هو الذي يسيّر العالم برشد، لأن الأمانة من المفروض أن تكون في يد هذا النوع من البشر، ولكن عندما غاب نُزعت منه الأمانة وسلِّطت عليه البلايا، ولا تزال تسلَّط حتى يراجع نفسه ويعود عبدًا لله حقًّا كما طُلب منه، لا يشرك به شيئًا. وذلك يقتضي تحقيق معنى "الله أكبر"، لأن العبد حين يُقبِل على ربه في الصلاة ويقول "الله أكبر"، يعلن إعلانًا واضحًا بأن ما سوى الله لا قيمة له بالنسبة إليه، وقد أحرم عليه وانقطع عن ما سواه ولن يعود إلى من سواه. فهذا التكبير هو أكبر لفظ يتكرر في الصلاة، والصلاة أيضًا هي أكبر ركن يتكرر في حياة المسلم. ومعنى ذلك أننا نكبر مع الله أشياء كثيرة.. وهذا المعنى لا يتقرر فينا بيسر، ولذلك يكرَّر علينا كثيرًا، ونذكَّر به كثيرًا ليستقر معنى تكبير الله ﷻ.

المسلم ليس شخصًا عاديًا في هذا الكون، إذ المسلم موقعه الشهادة على الناس، وهو المنظِّم والموجه العام للبشر في الكرة الأرضية.. المفروض أنه هو الذي يسيّر العالم برشد، لأن الأمانة من المفروض أن تكون في يد هذا النوع من البشر.

إن المسلم في هذا الكون هو الإنسان الشاهد: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣)، بعد أن علم بحقيقة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾(العلق:١)، وبعد أن ترجم هذا العلمَ إلى عمل فمُلئ ذكرًا حتى وصل إلى درجة التوكل الكامل في فواتح المزمل. وتأتي فواتح المدثر لتعدّه للرسالة والإنذار، أي الشهادة على الناس؛ يكلَّف بالإصلاح بعد الصلاح. أول شرط وأول زاد هو: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنْذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾(المدثر:١-٣). لقد قُدِّم المفعول، وهذا يفيد الحصر، أي كأنه يقول: "وربَّك وحده فكبِّر، لأنك إن كبّرته وحده استطعت أن تنجز كل شيء لأنه معك. تكون ولاية الله لك تامة إن كانت عبوديتك له كاملة، وتكون نُصْرته لك تامة فتتصرف بقوة الله ﷻ.

إن المسلمين ما انتصروا بكثرة العدد، ولا انتصروا بكثرة العدة، وإنما انتصروا بولاية الله ﷻ لهم، إذ النصر لا يؤتى بالأسباب البشرية العادية وإن كان مطلوبًا إعداد هذه الأسباب: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾(الأنفال:٦٠)، ولكن ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾(آل عمران:١٢٦)، إن شاء أنزله وإن شاء لم ينزله، وإنه ينزله على المؤهلين وإن كانوا قلة. هذه الحقيقة تجعل التربية الإسلامية في كل عصر ومصر، تنطلق أولاً من تدريب المربَّى -كبيرًا كان أم صغيرًا- على ترسيخ هذه الحقيقة في قلبه وجعلها مستقرة كل الاستقرار. أما السبيل إلى ذلك فطريقان كبيران، طريق التدبّر للقرآن، وطريق التفكّر في الأكوان. ولله درّ القائل بعبارة لطيفة جامعة في قرون خلت: "ارْحلْ من الأكوان إلى المكوّن". إذا نظرت إلى الشجرة لا تقف عندها ولكن انفذ إلى خالقها، إذا نظرت إلى الحيوان فتجاوزه إلى خالقه، إذا نظرت إلى الجماد إلى

الشمس إلى القمر... تجاوز هذه الأشكال الخارجية إلى بارئها. وهذه الحقيقة لها اليوم أهمية كبيرة، إذ إن الذي يحبس نفسه بين الأسوار ويتجول بين مصنوعات البشر، ويفكر فيها اليوم وغدًا؛ يربطها بصانعها فيكبر عنده الإنسان. وهذا الغرور هو الذي داخل قديمًا فرعون، يومَ صنع له هامان ما صنع. وهذا الغرور هو الذي يداخل البشرية اليوم حين تنظر إلى نفسها، وتنظر إلى ظاهر العلم: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾(النجم:٢٩-٣٠)؛ إنه علم السطوح، والأشكال، والأشباح، والظواهر... إن مؤمنًا بسيطًا قد قرأ شيئًا من كتاب الله وعرف دين الله، هو أعلم بكثير من "أنشتاين" وغيره، لأن علمهم لا يجاوز السطح، ولا يعرف من أين جاء هذا الكون، وإلى أين يصير، كما أنه لا يجاوز ذاته أيضًا.

الفضاء العلمي للمسلم، أفسح بكثير من فضاء العالم الكبير في أمور الدنيا، لأن أظهرَ حقيقةٍ وأصرحَها في هذا الكون هي خالق هذا الكون. وهل ظهر هذا الكون وحده؟ هل الكون بهذا النظام وبهذه العظمة ظهر وحده؟ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَ يُوقِنُونَ﴾(الطور:٣٥-٣٦)؛ فأصرح حقيقة وأظهرها هي الله ﷻ، ولكنهم لا يعرفونها وهم جاهلون: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾(الزمر:٦٤). من لم يعلم الله فهو أجهل الخلق على الإطلاق، لأنه لا يرى أصرح حقيقة في هذا الكون، كبرت وظهرت حتى ما عاد يراها، ويقال: "ومن شدة الخفاء الظهور".

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾(النمل:٨٨)، انظر إلى الأرض: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾(الملك:١٥)؛ الأرض تسير كالناقة الذلول تجعل راكبها في غاية الاستراحة، تجري لمستقرٍّ لها. كل شيء يطير في هذا الكون، لا شيء واقف، ونحن عوالم في نقطة صغيرة.. بالمكبرات تظهر عجائب وغرائب من كائنات فينا. وحسبك الذرة وما فيها من نيترونات وبروتونات والفضاء الموجود بينها. يقول العلماء: لو أزيل الفضاء الموجود بين النواة في الذرة وما يدور حولها من هذه النيترونات والبروتونات، لصارت الأرض في حجم البيضة. فهذه الأجسام التي نراها، كلها فضاءات.. نَظهَر كأننا ملتحمون، ولكن لو نُظر إلينا بمستوى عال من المكبرات، لَوجدَنا فضاءات خيالية يمكن أن تخترقها كائنات.

إذن ينبغي التفكر في هذا الكون: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾(آل عمران:١٩٠-١٩١)، الذي يظن أن هذا الخلق باطل، يقول فيه الله ﷻ: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾(ص:٢٧).

والقرآن عصارة الكون؛ عصارة قوانينه وعصارة نظامه، فينبغي أن يُتدبر بالليل والنهار، لذلك يجب أن يحمل في الصدر ليقام آناء الليل وأطراف النهار لتدبُّره: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾(ص:٢٩)، إنما أُخرج هذا الكتاب أساسًا ليخرج الناس من الظلمات إلى النور. هدفه واضح: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۞ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(المائدة:١٥-١٦). وليصل العبد إلى ذلك الهدف الواضح، يجب أن يتدبر هذا القرآن، وقد أُنزل لهذا التدبر، وأنكر علينا ألا نتدبّره: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(محمد:٢٤). الطريق في غاية الوضوح؛ إذا تدبّرنا هذا الكتاب، أفضى بنا إلى تكبير الله ﷻ، وإذا تفكرنا في هذا الكون، أفضى بنا إلى تكبير الله ﷻ، بحيث نرى أن الله ﷻ هو كل شيء، وبيده كل شيء، وإليه يصير كل شيء، ولا يمكن لأحد أن يفعل شيئًا دون إذنه: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾(الإنسان:٣٠).

فلا يظنّ ظانٌّ أن المُلك بيد كائن من الكائنات، إنما الملك لله وحده. في الحديث الشريف يقول ﷺ: "إن الله -ﷻ- يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن يحب" (رواه أحمد)، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۞ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۞ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾(الإسراء:١٨-٢٠). من أراد أن يكون عبدًا صالحًا، فالله ﷻ يوصله بإذنه إلى تلك المنزلة: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾(الأنفال:٧٠).

الله ﷻ يحب المسلمين، لذلك يسلط عليهم البلايا، وفي الحديث الصحيح: "من يُرِد الله به خيرًا يُفَقّهه في الدين"

(رواه البخاري)، وفي حديث آخر: "من يُرِد الله به خيرًا يُصِبْ منه" (رواه البيهقي)؛ أي ينزل عليه المصائب فتكفِّر عنه الخطايا فيطيب فتستقبله الملائكة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾(الزمر:٧٣). وفي حديث آخر يقول ﷺ: "لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يلقى الله وليس عليه خطيئة" (رواه البخاري)، وهذا البلاء في هذا الحديث فردي. وهناك البلاء الجماعي الذي نعيشه اليوم هو بلاء العقوبة، حيث هناك بلاء الترقية، وبلاء التنقية، وبلاء التطهير، وبلاء التزكية... فهذه البلايا التي تنزل بالأمة اليوم، كأنها مبشرات بين يدي رحمته: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾(الأعراف:٥٧). ما الذي يسرّع بعد فضل الله استفادة الأرض من الغيث؟ إنه التعجيل بالتوبة النصوح على المستوى الفردي وعلى المستوى الجماعي. كما أن الجماعة تتكون من أفراد، والتوبة على مستوى الأفراد تنتهي بنا إلى التوبة على مستوى الجماعات وعلى مستوى الأمة إن شاء الله تعالى. قياس درجة التحقق هي إيثار ما يرضي الله ﷻ. كيف نعرف أن هذه الخاصية في التربية تمكنت منّا؟ كل واحد يستطيع أن يعرف معبوده بيسر كالطريقة التي يعرف بها مدى ارتفاع السكر في الجسم. هل نحن نعبد الله حقًّا أم نعبد سواه؟ هذا أمر سهل في مكنة أي فرد؛ عندما تتعارض المصلحة الشرعية -هو الأرضى لله- مع أمر ليس فيه رضى الله، بل فيه سخط الله، ذلك يعني أنك كبّرت على الله ما سواه، هل هو المال؟ هل هو الجاه؟ يقول رسول الله ﷺ: "ما ذئبانِ جائعانِ أُرسِلا في غَنَمٍ بأَفْسَدَ لها من حِرْصِ المرءِ على المال والشَّرَف لدينه" (رواه الترمذي)؛ الذئب لا يأكل ما قتل، إلا بعد أن يستريح من قتل أكبر عدد من الغنم، هذه خاصية في الذئب، إذ لا يُفهم هذا الحديث بغير معرفة هذه الخاصية في الذئب. هناك من يعطي المالَ من أجل الجاه فمعبوده الأساسي هو الجاه، وإذا ضحّى بالجاه من أجل الحصول على المال فمعبوده الأساسي هو المال، والذي يترجح على ما سواه هو المعبود الحق، قال رسول الله ﷺ: "فوالله ما الفَقْرَ أخشى عليكمْ ولكني أخشى عليكمْ أنْ تُبْسَطَ الدنيا عليكم كما بُسِطَتْ على مَنْ كان قبلكمْ فَتَنافَسُوها كما تنافَسُوها فَتُهْلِكَكم كما أهلَكَتْهم" (رواه مسلم).

> **التربية الإسلامية قائمة على أساس أكبرية الله ﷻ في القلوب، أي امتلاء قلب المؤمن بأكبرية الله ﷻ. وإذا امتلأ القلب بهذه الأكبرية، فإن ما سوى الله يصغر، يصغر كلُّ ما صغّره اللهُ، ويكبر كل ما كبّره اللهُ، إلى جانب كونه هو الأكبر ﷻ.**

ولكن ما قصة هذا الغثاء اليوم؟ ما قصة مليار وثلاثمائة مليون من المسلمين؟ إن الداء الذي سماه رسول الله ﷺ بـ"الوهن"، أصابهم، فقيل له ما الوهن يا رسول الله؟ قال: "حب الدنيا وكراهية الموت" (رواه أبو داود).

العبد في سبيل أمر دنيوي، يُنفق بلا حساب، ولكنه في سبيل أمر أخروي لا يكاد ينفق شيئًا. متى يظهر فينا أمثال أبي بكر وعمر ﷺ، يأتون بأموالهم كلها في سبيل الله أو بنصف أموالهم، ومتى يكون الله ورسوله أحب إلينا مما سواهما، ومتى نكبّر الله.. أو بتعبير آخر، متى وجدنا في أنفسنا وفي أولادنا ترجيحًا لما فيه رضى الله على ما ليس فيه رضى الله، فلنعلم أن هاته الصفة قد استقرت، ومتى لم نجد ذلك فلنعلم أنها لم تستقر بعدُ، وهي صفة لا تتأثر بزمان ولا بمكان ولا بإنسان. هذه الصفة هي الأساس، وهي في علاقتها بهذه الأركان كعلاقة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" ببقية الأركان، وكل شيء يتأسس على هذه الخاصية.

٢- اتباع هدى الله ﷻ

أين يوجد هدى الله؟ يوجد في الوحي، في كتاب الله ﷻ وفي سنة رسوله ﷺ الصحيحة، وإن هي إلا بيان للقرآن: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾(القيامة:١٨-١٩)، وقد كلّف نبيّه ببيانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(النحل:٤٤)؛ وظيفة رسول الله ﷺ البيان، وحياته كانت بيانًا باللفظ وبالفعل وبالإقرار، لا يُقِرُّ أحدًا على الخطأ، هذه خلاصة السنة؛ فالرسول ﷺ بيّن القرآن وكان خلُقه القرآن.

ما المقصود بالهدى؟ دلالته الإرشاد بصفة عامة، وهو مثل الضوء ينير الطريق: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(الإسراء:٩). ومعلوم أن أخصر طريق بين نقطتين هو الخط المستقيم، وهذا أقوم طريق، فيه معنى "الله أكبر" أيضًا، أي أن هدى الله أكبر: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾(البقرة:١٢٠)، ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ

حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(البقرة:١٣٥)؛ الهدى محصور هاهنا، ولكن لا استفادة من هذا الهدى دون الوسائل التي تمكّن من تحقيقه.

إذن ما وسيلة تحقيق هذا الهدى؟ عندما نقول "الهدى" نقصد الهدى في الأمور الفردية الذي يتعلق بالأحكام الفقهية التطبيقية التفصيلية، أي تعرف كيف تتوضأ، وكيف تصلّي، وكيف تزكّي، كيف تمارس حياتك... تعرف أن معرفة الحكم الشرعي في العمل الشخصي يُعتبر فرضَ عينٍ لا فرضَ كفايةٍ. والمعلومات الأخرى العادية التي تتعلق بمهن الآخرين وحِرَفهم، في حقك تُعتبر فرْض كفاية، وفي حقهم تُعتبر فرض عين. فيوجد الهدى في هذه الفروض العينية وفي الفروض الكفائية وفي النوافل والمندوبات والمستحبات... كما أن هناك هدى أكبر وأعم من هذا الهدى، حيث ينشئه ويؤطره ويرشد إليه، وهو الهدى التصوري العام، الهدى العقدي في اصطلاح تاريخ العقيدة، وإلا فالأمر يتعلق بمضمون "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، ومضمون "لا إله إلا الله" إخلاص العبودية لله ﷻ، لأن الإله في اللغة العربية هو المتعلَّق به رغبة أو رهبة، فأَلِهَ الطفلُ أمَّه: تعلق بها أشد التعلق، ومنه الوَلَهُ كذلك. فالذي يجب أن يتعلق به رهبة ورغبة، هو الله ﷻ، ومن ثم ينبغي إزالة الشوائب، حيث لا يبقى في الشيء غير ما هو الأصل. إذا أخلصت الذهب بوضعه على النار، أي فتنتَه، فَتَنَ الذهبَ في النار، أي وضعه في النار لإزالة الشوائب منه، أي ليخلص. وهذا يعني أن الإخلاص هو إخلاص العبودية لله، أي إزالة جميع شوائب الشرك وهو مقتضى "لا إله إلا الله".

إذن، لتحقيق معنى اتباع هدى الله على مستوى التصور العام، ينبغي على العبد التفكّر والتدبر وفق هدى الله ﷻ، أي يُستنبط الهدى في كل ذلك من القرآن والسنة. فأسلمة العلوم تدخل في هذا الإطار، وهي من اتباع هدى الله الذي يجب تربية العبد عليه كان كبيرًا أم صغيرًا، والطريق إلى ذلك قَرْن العلم بالعمل. لا يعدّ العلم علمًا ما لم يصحبه عمل؛ فعندما لا نجد أثر العلم في حامل العلم، فهو من نوع: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾(الجمعة:٥)، ومسؤوليته خطيرة.

فالعلم يهتف بالعمل، فإذا لم يجده ارتحل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(فاطر:٢٨). فحين لا نجد خشية تصحب العلم، فاعلم أن العلم غير موجود؛ العلم بمعناه الشرعي غير موجود. فاقتران العلم بالعمل، يذهب بنا في القياس إلى أن ننظر من جهة حصول الهداية والاهتداء، ولذلك نطلب سبعة عشر مرة في كل يوم إجباريًّا شيئًا واحدًا، ما هو؟ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(الفاتحة:٦)، ما الجواب؟ ﴿الم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾(البقرة:١-٢)؛ بمعنى؛ اتق الله تهتدي، واتبع ما جاءك من عند الله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾(المائدة:١٦). ومن لم يتبع لا يُهدى أبدًا. إذن نقيس هذه الصفة في حصول الاهتداء.

٣- تقديم الفرائض على النوافل

في الحديث القدسي الصحيح يقول الله ﷻ: "من عادى لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب، وما تَقرَّبَ إليّ عبدي بشيء أحبَّ إليّ مما افترضتُه عليه" (رواه البخاري). والفرائض، فيها فرائض الفعل كالصلاة والزكاة والصيام... وفيها فرائض الترك كترك الخمر والزنا والرِّبا وعقوق الوالدين... "وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه" (رواه البخاري). إذن الطريق معبّد لمن يريد الوصول، ولكن يجب الاتباع والسير في هذا الطريق وفق نظام هو عبارة عن سلّم للأولويات، والطفرة قد تؤدي بك إلى الحفرة. نظام الأولويات في هذا الدين في غاية الأهمية وهو جزء من اتباع هدى الله، لأن كثيرًا من صور الخلل في تاريخنا وفي واقعنا، ترجع أساسًا إلى التشوه الواقع في أولويات هذا الدين. هناك من غلظ أنف هذا الدين، وهناك من غَلَّظ يدَه اليمنى، وهناك من غَلَّظ يدَه اليسرى، هناك من غَلَّظ الجِذْع فشوَّه خِلقة الدين... للدين نظام؛ الزمن يُقسَّم بطريقة معينة، عندما لا تجد عبادة مفروضة بين الصبح والظهر -على سبيل المثال- فاعلم علم اليقين أن ذاك وقت الكسب ووقت العمل، وليس وقت النوم، وليس حتى وقت الصلاة. وعندما تجد أوقات الصلاة تتقارب، فاعلم أن الأمر يتجه وجهة أخرى، وتنظيمها على نظام معيّن؛ العشاء في وقت الشفق، وفي السُّنّة يكره الكلام في غير ذكر الله ﷻ بعد صلاة العشاء، "اللهم بارك لأمتي في بكورها" (رواه الترمذي). لابد أن ندخل في النظام العام حسب ما نظمه الإسلام، في نظام الزمان ونظام المكان ونظام الإنسان والتجمعات الإنسانية... النظام الذي يقدَّم ويؤخَّر وهو جزء من الهدى.

المقصود إذن من هذا الأساس الثالث، هو التزام نظام الأولويات. كذلك في الجانب المتغير هناك ما يسمى عند العلماء بـ"واجب الوقت"؛ لنفترض أن الصلاة بقي لها ركعة وسيخرج وقتها، وأنت بصدد أن تكبّر رأيت في تلك اللحظة أعمى على أبواب حفرة سيسقط فيها ويهلك، فواجب عليك أن تقدِّم هذا الواجب الأول -أي إنقاذ هذا الأعمى- على تأدية الصلاة مع أنها واجبة أساسًا. هذا يسمى لدى العلماء بـ"واجب الوقت"، أي الواجب المتغير. معرفة النظام العام يسهّل السير. ونسترشد بكلمة جامعة هي من وصية أبي بكر لعمر رضي الله عنهما قال له: "واعلم أن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدَّى الفريضة". فلننظر في أعمالنا وممارستنا، فطريقة قياس هذه الصفة هي إيثار الأهم في ميزان الله لا في ميزاننا، لأننا إذا قدّمنا الأهم في ميزاننا نكون قد أخللنا بالأساس الأول الذي هو تكبير الله. لابد إذن، أن نجعل أمورنا سائرة وفق هذه الأسس التي يتفرع بعضها عن بعض، فإيثار الأهم في ميزان الله يعطينا طريقة لقياس هذا الأساس.

٤- الإحسان في كل شيء

المسلم محسن: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة، ولْيَحُدّ أحدُكم شَفْرَته وليُرِحْ ذَبيحتَه" (رواه مسلم)؛ الإحسان معناه أساسًا "الإتقان"، و"إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه" (رواه الطبراني)، أي إذا عملنا عملاً، أخرويًّا كان أم دنيويًّا، يتعلق بأمر المعاد أم بأمر المعاش، فيجب أن نتقنه وأن نحسن فيه، وهذا يعني أننا سنستريح من الغش، وفي الحديث الشريف يقول ﷺ: "مَنْ غَشَّنا فليس منّا" (رواه مسلم)، إشارة إلى أنه لا يقبل من المسلم الغشّ مع أيّ كان. لماذا؟ لأن الدين النصيحة، والنصيحة في العربية تعني: بذل أقصى الجهد كي يحسن. فالدين النصيحة، والدين الإحسان، والدين الإتقان... إذا نظرنا إلى أحوال المسلمين اليوم -كبارهم وصغارهم- فماذا نجد في الصناعات، وفي المعاملات، وكذلك في أمور العبادات، سنجد أن الغش متمكن منّا.

وورد في الحديث الشريف: "إنما يُكتب للعبد من صلاته ما عقل منها" (رواه أبو داود). لماذا؟ لأن أساس الصلاة ذكر الله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾(طه:١٤).

الصلاة أيضًا نَغُشّ فيها، لا نؤديها كما أراد الله ﷻ أداء حقيقيًّا بالتركيز اللازم، ومن أهدافها تركيز الانتباه للخروج من حال إلى حال. الإحسان مطلوب، ووسيلته أن نعمل لله على عين الله كما وضع رسول الله ﷺ معنى الإحسان: "أن تعبد الله كأنك تراه"، يستحيي أو يخاف، أما حين يغفل عن الله "الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، إذا ذكر اللهَ خَنَس وإذا غفل وسوس" (رواه البخاري).

فعلامة هذا الأمر أيضًا، هو القبول في الأرض، الذي يأتي نتيجة المحبة. ورد في الحديث الصحيح: "إن الله تعالى ينادي جبريل: يا جبريل إني أحب فلانًا فأحبه، فينادي جبريل في الملائكة أن الله يحب فلانًا فأحِبّوه، فيوضَع له القبول في الأرض".

٥- الاستعداد للجهاد

الجهاد بالأموال والأنفس في سبيل الله، بمعنى أن نبذل أقصى الجهد لتكون كلمة الله هي العليا، وهي صفة أساسية ينبغي أن نربي عليها أنفسنا. ولا يجوز شرعًا ألا نبذل هذا البذل: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾(التوبة:٢٤). وهي الكلمة التي قالها الرسول ﷺ لعمر رضي الله عنه عندما قال له: أحبك يا رسول الله أكثر من كل شيء إلا نفسي التي بين جنبي، قال ﷺ: "لا، حتى أكون أحب إليك من نفسك"، أي أن تحب الوحي، تحب الكتاب والسنة، قال عمر رضي الله عنه: أنت الآن أحب إليّ من نفسي، قال له ﷺ: "الآن يا عمر" (رواه البخاري). وعلامة هذه المحبة، استرخاص ما آتانا الله فيما يرضي الله، والتدريب على ذلك في أعمال البر، المالية والبدنية باستمرار، وعلامة تحقق ذلك هي المسارعة المستمرة إلى التطوعات في الخيرات.

وأخيرًا يقول الله تعالى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾(مريم:١٢)، وقال تعالى لبني إسرائيل: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾(البقرة:٦٣)؛ لأنك إذا لم تأخذ الكتاب بقوة، لن تستطيع حمله، ولن تستطيع البلوغ... إذن لابد من أخذ الكتاب بقوة، فالله سبحانه يقول: ﴿يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾(الأعراف:١٧٠)، ولم يقل: "يَمْسِكون الكتاب". ■

(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية "مبدع" / المغرب.

أ.د. عماد الدين خليل*

لماذا إبليس؟

كثيرًا ما يتساءل المسلم عن الحكمة من خلق الشيطان.. عن الأهداف البعيدة في علم الله سبحانه، تلك التي دفعت إبليس إلى رفض السجود لآدم.. وتحدّيه.. وإعلانِه خصومتَه الأبدية.. وقَسَمه على الله أنْ لَيُغوينّه وذريتَه إلى يوم الدين.

والجواب يكمن في ضرورة خلق الصراع، أن التناقض أو التقابل الثنائي الفعال الذي يحرك الدور البشري في العالم ويدفعه إلى الأمام.. إنه التحدي الذي لابد منه لشحذ همة الإنسان.. فمنذ اللحظة الأولى لخلق آدم، يُجابَه الإنسانُ بقوة الشر المقابلة متمثلة بالشيطان، وكلِّ ما يملك من أساليب يداهِم بها الإنسان من الخارج أو يبرُز له من الأعماق، من صميم الذات.. يجيئه من مسارب العاطفة والوجدان والنفس، أو يندفع إليه من منافذ الحس، أو يستصرخ فيه شهوات الجسد، أن يتقدم إليه محملاً ببهرج الدنيا وزينتها.. يجنّد لقتاله والمروق به عن ساحة الخير كل القوى المادية والمعنوية، وكل الذين يختارون بإرادتهم أن ينتموا إليه، أناسًا كانوا أم شياطين أم جنًّا.. ورغم أن أسلحة الشيطان كثيرة، متنوعة، عاتية، إلا أن الإنسان قد وُهب إزاءها قوى معادلة وإمكانات مكافئة تعطي للصراع الدائم بين الطرفين مدى واسعًا ممتدًّا، بحيث أن النصر والغلبة لن تجيء بسرعة، سهلةً، كالضربة الخاطفة لأي منهما. إن هذه "المقابلة" تمثل

تحديًا واستفزازًا لابد منهما لتحريك الإنسان -فردًا وجماعة- صوب الأحسن والأمثل، وصقل طاقاتهما لكي يكونا أكثر مقدرة على المقاومة والصراع، وبالتالي أقدر على مواصلة الصعود في الطريق الموصول بالسماء بدءًا ومنتهى.

حقًّا إن الصراع بين الشيطان والإنسان شامل واسع معقد متشابك، إنه تقابلٌ بين الخير والشر على أوسع الجبهات، تقابلٌ لابد منه إذا ما أريد للحياة البشرية أن تتجاوز الكسل إلى النشاط، والفتور إلى التمخض، والسكون إلى الحركة. إنه ابتلاءٌ فعال لن يأخذ تاريخُ البشرية بدونه شكله الإيجابي، ولا يمضي إلى غاياته المرسومة منذ هبوط آدم إلى يوم الحساب: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾(الأنعام:٥٣)، ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(الأنبياء:٣٥)، ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾(العنكبوت:٣)، ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ﴾(الحديد:١٤)، ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾(العنكبوت:٢)، ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾(الأنبياء:١١١)، ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾(الحج:٥٣).

ويبقى نداء الله الدائم للبشرية: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾(الأعراف:٢٧) محورًا كبيرًا يدور عليه الصراع والحركة والتقدم إلى أمام أو الرجوع إلى وراء.. ورغم أن الله سبحانه وهب بني آدم قدرات العقل والروح والإرادة والعمل وعلّمهم الأسماء كلها، إلا أنه سبحانه لم يتركهم وحدهم في تجربة صراعهم في الأرض، وظل يمدّهم -حينًا بعد حين- بتعاليم السماء وشرائعها العادلة وصراطها المستقيم الذي يحيل حركة البشرية في العالم إلى حركة متقدمة أبدًا في خط متوازن صاعد لا رجوع فيها إلى وراء: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(البقرة:٢٥٧)، ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ۞ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾(طه:١٢٣-١٢٤)، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾(الأنبياء:١٨).

يبقى الشيطان رمزًا أبديًّا للصراع بين الإيمان والكفر.. ويظل تحديه للإنسان سببًا لشحذ همة الإنسان وتعميق إيمانه واستئصال مكامن الشر والضعف في نفسه، لكي يقدر على مجابهة الفتنة ويجتاز المعوقات ويزيح الموانع والعقابيل متقدمًا أبدًا إلى الأمام.

إن أشد ما يرفضه كتاب الله في دعوة البشرية للإفادة من هذا الصراع وتحويله إلى حركة متقدمة صاعدة، هي نزوع بعض الجماعات والزعامات إلى الوراء، ومواقفهم الرجعية التي ترفض أية دعوة تسعى لكي يحتلوا مواقع في الأمام: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾(المائدة:١٠٤)، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(المائدة:٥٠)، ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾(الأعراف:٢٨)، ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾(الشعراء:٧٤)، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾(البقرة:١٧٠)، ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ۞ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾(الزخرف:٢٢-٢٤)، ويبقى الشيطان -خصم بني آدم اللدود- رمزًا أبديًّا للصراع بين الخير والشر، بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر.. ويظل تحديه للإنسان سببًا لشحذ همة الإنسان وتعميق إيمانه واستئصال مكامن الشر والضعف في نفسه، لكي يقدر على مجابهة الفتنة ويجتاز المعوقات ويزيح الموانع والعقابيل.. متقدمًا أبدًا إلى الأمام.. تلك هي الحكمة البالغة في خلق الشيطان.. ورفض إبليس السجود لآدم عليه السلام. ■

(*) كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق.

د. سلمان العودة*

لديّ حلمٌ

عندما سجّل الصبي المعدم حلم الطفولة أن يمتلك حقلاً وخيولاً ومضمارًا، شطب المعلّم على درجته وحرمه من متعة الحلم.

- كيف تحلم بهذا وأنت لا تمتلك قيمة الدفتر الذي تدوّن فيه حلمك، والذي كان هدية من جمعية خيرية؟

يعرض على تلميذه أن يعيد الامتحان، فيرد الصبي بكبرياء:

- احتفظ بدرجتك، وسأحتفظ بحلمي!

يا للعظمة، حين تتمثل موقفًا شامخًا يستعلي على الاستلاب، ويصرّ على المواصلة ليجد نفسه في نهاية المطاف حيث يحب! إنه التحدي الذي يضطرك أحيانًا إلى المضي قُدمًا في طريقك غير عابئ بسارقي الأحلام.

حين قال "مارتن لوثر كينغ" كلمته السائرة: "أنا لديّ حلمٌ" كان يتحدث بأكثر من لغة، أهمها لغة الإنسان.

أحلام المنام ضرب من الخيال، ما زال الإنسان يدأب حتى حقق معظمها، فطار في الفضاء، وأبدع وابتكر وذلل الصعاب وقهر المستحيل.

الحلم فوق الطموح

وَإِذا كانَتِ النُّفوسُ كِبارًا

تَعِبَت في مُرادِها الأَجسامُ

الهـدف حلـم مؤقـت له مدة ينتهـي إليها، أمـا الحلم فهو شـوق دائم متصل بنبض القلب وخفق الـروح وتطلـع العقل وسبح الخيال.

حيـن يتحقق الحلـم كأنه يتبخّر، إذا قطفتـه مات. فأجمل مـا في العمر هـو الانتظار، لحظات الترقب مشـحونة بتفاعل غريـب هو ذروة الحياة. سـيظل الحلم حلمًـا يروى بدموعنا، ويقتات من سهرنا، ويستحوذ على يقظتنا ومنامنا.

كان "مارتن لوثر كينـغ" يقول: "سـأزرع شجرة التفاح ولو كنـت أعلم أن نهاية العالم هي الغد"، وهو اقتباس من مكنون الحكمة الإنسانية الرفيعة.

مشـكاة النبـوة كانـت أبلـغ حيـن قـال ﷺ فـي الحديـث الصحيح الذي رواه أحمد والبخاري: "إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل". مقـام النبـوة ذكر النخل "الرّاسـخات في الوَحْـلِ، المُطْعِمات في المَحْلِ". وهي تشـبه الرجل المؤمن رمزَ الصبر والانتظار والمقاومة واحتمال العطش.

إذا قيل هذا مَنْهلٌ قُلت قدْ أَرى

ولكنَّ نفسَ الحُرِّ تحتملُ الظَّمَا!

لـم يقـل: غدًا، وإنما قال: الآن.. لو اختلسـتَ بضـع ثوانٍ لتغرس الفسيلة قبل أن يلحقك الفَوتُ فافعل.

حلـم جميـل لا يموت، لأنه لا يتمحـور حول الذات، بل فيه حظ وافر للآخرين، ليس أنانيًّا.

الوعـد الحـق "الأجر" تغذية للطموح حتى في عمل الدنيا الذي يعلم أنه لا يثمر، مجرد "الفعل" هو حفظ لإنسانية البشر من التلاشي والانهيار، إنه "العلاج بمعنى". هذا سر الغيب في الثـواب الأخروي، وهو حافـز آخر غير مجرد الإيمان بأهمية الفعل.

الحلـم نقلـة من ضيـق اللحظة إلى سـعة المسـتقبل، من الإحبـاط إلـى الأمـل والتفـاؤل، مـن الخـوف إلـى الرجـاء والتطلـع. الطفل الفقير يحلم بتفاحة يقضمها، أو فراش وثير ينام عليه، أو دُمية يلعب بها.. الخائف يحلم بالأمان ولا يفكر بمـا سـواه، والمخاوف هي عـدو الأحلام، وحينما يسـتحوذ الخوف يبدو المرء مكبلاً بالقيود.

قـد يعيش المرء في زنزانـة يراها ويلمس قضبانها ويحس بأنـه محبـوس، وقـد يعيـش فـي زنزانـة لا يراهـا ولا يلمس قضبانها ويظن بأنه حر وهو قنٌّ مثقل بأوزار الحديد.

تأمّـل لغتـك.. كـم مـرة فـي اليـوم تقـول: "نعـم ولكـن أخشى".. العائلة حلم جميل، إشباع لرغبة الامتداد الإنساني، ورؤية الذات في الآخر بشـكل منفصل جسـديًّا متصل روحيًّا ووجدانيًّا.

قمـة الهـرم الثقـة بالنفـس وقدراتهـا والجـرأة علـى بدء الخطوات الأولى نحو الحلم العظيم.

أعلّلُ النفس بالآمال أرقُبُها

ما أضيقَ العيشَ لولا فسحةُ الأمَلِ.

ثـم مَن يحاصر الحياة، وأسـوأ منه، مـن يحاصر الأحلام فـلا يريـد من الناس أن يحلمـوا، أو أن يمتد خيالهم إلى أبعد من معاناتهم اليومية. السعادة حلم.. والنجاح حلم.. والحرية حلم؛ حتى لدى الطائر يضرب شباك القفص ويرنو إلى الفضاء، أو القطّ يموء ويتمسـح بالبـاب يطلب الانعتاق من ذل القيد.

والعدالـة حلم المجموع، حين تذوب الفوارق المصطنعة ويتساوى الكل أمام سلطة الدنيا أو سلطة الآخرة.

ولقد قُلت لنفسي، وأنا بين المقابر..

هل رأيتِ الأمن والراحة إلا في الحفائر؟

فأشارت، فإذا للدود عَيْثٌ في المحاجر

ثم قالت: أيها السائل إني لست أدري!

انظري كيف تساوى الكل في هذا المكان

وتلاشى في بقايا العبد رب الصولجان

والتقى العاشق والقالي فما يفترقان.

شـعورك بأنـك يجـب أن تضيف شـيئًا إلى الحيـاة، أنك تعيش مخلصًا لحلم تنتظره.. هذا يكفي.

مُنًى إن تَكُن حقًّا تَكُن أحسَنَ المُنى

وإلا فَقَد عِشنا بها زمنًا رَغدا

أمانيُّ مِن سُعدى عِذابٌ كأنما

سَقَتنا بها سُعدى على ظمإٍ بَردا

أن تكـون مثـالاً لمبدع أو متفـوق، أو نمطًا جديـدًا يفتح آفاقًا لآخرين، أو نموذجًا مركبًا من نماذج عديدة. سألني فتى عـن أهم أحلامي؟ فقلت: أن أمـوت وأحلامي تنبض بالحياة وتواجـه التحـدي، وتنفـخ روح الأمل فـي ضمائر البائسـين واليائسين والمحبطين.

لا تَخـفْ علـى حلمك متـى كنت مخلصًا وصبـورًا، لأن العالـم حينئـذ سـيتآمر كلـه لتحقيق حلمـك كما قـال "باولو كيليـو" ذات مـرة. يجب أن يكون الحلم عشـقًا رائعًا، يخالط

اللحم والدم، ويتخلل العظم، ويطل من العيون، ويسكن اللغة، ويندفع مع الزفير ليعود مع الشهيق.

الفتى يرسم الحلم في سيارته أو دفتره، والفتاة ترسمه في غرفتها أو شنطة يدها، وقبل هذا، يجب أن يكون مرسومًا في سويداء القلب وأعماق الوجدان ومسكن الروح.

ستلقي هنا بالأعذار والمعوقات في سلة المهملات، ولن تسمح للإخفاق أن يكسب الجولة. "احرص على ما ينفعك"؛ دعوة نبوية للتعاطي الجاد مع الفرص الإيجابية بروح المبادرة والإنجاز. "واستعن بالله"؛ فحين تربط حلمك بالله تمنحه أزلية وسرمدية ليتحول من حلمِ فردٍ إلى أحلام أمة، من حلمٍ دنيوي معزولٍ إلى أفق فسيح ممتد إلى حيث الآخرة والعدل والقسط والفضل الرباني في نعيم لم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على بال. "ولا تعجزْ"؛ وكيف يعجز مَنْ وقودُ روحه من جذوة الإيمان؟ "وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا. ولكن قل قدَرُ الله وما شاء فعل".

فالإيمان ليس جبرية عمياء ولا استسلامًا ولا جحودًا للطاقة الإنسانية الهائلة، وليس بكاء على الأطلال، ولا جزعًا من تغيُّرات الأحوال، إنه اليقين بأن الخير حيث يضعك الله، وأنك كل يوم تنشئ حلمًا جديدًا، وأملاً جديدًا، ونجاحًا جديدًا. وما لم تمتلك القدرة على الحلم؛ فلن تفعل شيئًا.

عليك أن تحذر أن تدجّن حلمك لتجعله صورة مشوهة مسكونة بتعرجات الواقع واعوجاجاته.. احلم دون قيود.. أطلق خيالك.. واصنع عالمك الافتراضي الذي سيغدو حقيقة ملموسة متى آمنت بها.

"لوحة الأحلام" فكرة بسيطة، اكتب عليها أهدافك، وضَعْها في مكان ظاهر تراه كل يوم، أهداف قريبة بعيدة المدى. اكتب معها آية كريمة أو حديثًا أو حكمة تؤمن بها.

سوف نتفوق حينما نمتلك أحلامًا ورديَّة بعدد شخوصنا، أو حينما يفلح أولئك الذين يمتلكون الأحلام الجميلة من الإمساك بناصية الحياة. سوف نتفوق حينما يصبح الخطاب المتدين حافزًا للأحلام وليس رقيبًا عليها.

لا تَخفْ على حلمك متى كنت مخلصًا وصبورًا، لأن العالم حينئذ سيتآمر كله لتحقيق حلمك. يجب أن يكون الحلم عشقًا رائعًا، يخالط اللحم والدم، ويتخلل العظم، ويطل من العيون، ويسكن اللغة، ويندفع مع الزفير ليعود مع الشهيق.

السِّر

سألني أحد الشباب عن كتاب "السِّر" من تأليف الأسترالية "رونـدا بايرن"؛ فأحوجني إلى شرائه وقراءته، وصَحبتُه في بعض سفري، فرأيت نظرية تقوم على تحفيز كوامن النّفس للتفاؤل والعمل، والثقة بأن ما يريده المرء أو يحاوله ممكن، بل هو واقع لا محالة متى قاله المرء بلسانه واعتقده بجنانه ورفعَ الأفكار السوداوية المتشائمة..

وأن على الإنسان أن يكرّس ذهنه وفكره لما يريد وما يحب أن يكون، وليس على ما يكره أو ما يحاذر ويخشى. وذكّرني هذا بكلمة للإمام ابن القيم في مدارجه، يقول فيها: "لو توكّل العبد على الله حقّ توكّله في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأمورًا بإزالته لأزاله".

وذكّرني أيضًا بالكلمة السابقة لـ"مارتن لوثر": "أنا لديّ حلم"، ولم يقل: أنا لدي مشكلة.

نعم، كان هناك مشكلة ولا تزال، بيد أننا إذا دخلنا الحياة من بوابة المشكلات دخلناها من أضيق أبوابها.

وجدتُ فكرة الكتاب في الأصل، فكرة بحاجة إلى أن نُرسّخها في ضمائرنا بعيدًا عن الجدل حولها، حتى لا يخبو وهجُها ولا تنطفئ روحُها، نفعل ذلك لأن هذه الفكرة هي أحد المحفّزات الحقيقية للعمل والإنجاز والصبر.

وجدت أن مئات النصوص والكلمات التي أوردتْها المؤلفةُ وعلّقت عليها -وهي تدور حول تفصيلات الفكرة وقوانينها- لا تكاد تخرج في مؤدّاها عن مضمون حديثين أو ثلاثة، أحدها قول الرسول ﷺ في رواية عن ربه جل وتعالى في الحديث القدسي: "أنا عند ظنّ عبدي بي" كما في صحيح البخاري ومسلم، وفي لفظ: "فليظُنَّ بي ما شاء" كما أخرجه أحمد، وابن حبان، والحاكم.

وفي لفظ "إنْ ظَنّ بي خيرًا فله، وإن ظن شرًّا فله"؛ إن الظن هنا يشمل الدنيا والآخرة، وحُسْنُ الظن من حُسْن العمل. وحين نذهب إلى ترسيخ فكرة علينا ألّا نُوغل في حككتها

أو نفرط في افتراض ضوابط واستثناءات؛ لأنها تبهت أو تموت. وإذا استقرت الفكرة سهل بعدُ تعديلها وتصويبها.

والحديث الثاني قول الرسول ﷺ: "ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة"، وهو حديث لا بأس بإسناده، وأخرجه والترمذي، والطبراني، والحاكم. والمعنى أن يدعو العبد وهو موقن بأن الله سيجيبه، وليس على سبيل التجريب أو الشك أو التردد.

وكان عمر ﷺ يقول: "إني لا أحمل همّ الإجابة، ولكن همّ الدعاء، فإذا أُلهمتُ الدعاءَ فإن معه الإجابة".

وأرى هذه الكلمة من إلهاماته ﷺ، وكأن مقصوده ليس مجرد التلفظ بألفاظ الدعاء -وإن كان هذا حَسَنًا وصاحبه مأجور- بل ما هو أبعد من ذلك من استجماع القلب والفكر على الثقة بالله، وصدقِ وعده في الكتاب الكريم: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(غافر:٦٠)، ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾(النمل:٦٢)، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(البقرة:١٨٦). إن النظرة السوداوية كفيلة بسجن صاحبها في قبو مظلم مكثّف الرطوبة فاسد الهواء، يذكرك بالقبر الذي وصفه بدر السيّاب بقوله:

أُمّاهُ لَيْتَكِ لَمْ تَغِيبِي تَحْتَ سَقْفٍ مِن حجَارْ
لاَ بَابَ فِيهِ لِكَي أَدُقَّ وَلاَ نَوَافِذَ فِي الْجِدَارْ!

وكأنه استعجل الموت قبل أوانه، ولا غرابة أن تجد ضحايا التشاؤم والانعزالية والانغلاق النفسي، يردّدون عبارات الحنين إلى الرحيل دون مناسبة، بل وينتقدون من يحاول حرمانهم من هذه المتعة الوحيدة المتبقية لهم في الحياة إنْ صحّ أنهم أحياء.

وفي الحديث وقد سُئل ﷺ: مَن خير الناس؟ فقال: "مَنْ طال عمرُه وحَسُنَ عمَلُه" (أخرجه أحمد، والترمذي، وابن ماجه). وفي آخر: "لا يَتَمَنَّ أحدُكم الموتَ ولا يَدْعُ به مِنْ قبْلِ أن يأتيَه. إنه إذا مات أحدُكم انقطعَ عملُه وإنه لا يزيدُ المؤمنَ عُمْرُه إلا خَيْرًا" (أخرجه البخاري ومسلم).

والحياة نعمة امتنّ الله بها على الأحياء، وكان النبي ﷺ إذا استيقظ من نومه شكر الله وقال: "الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور" (أخرجه البخاري ومسلم). إن الاتصال بهدي الأنبياء ليس زادًا إلى الآخرة فحسب، بل هو زاد إلى الحياة الطيبة في دار الدنيا كذلك. ■

(*) عالم ومفكر وداعية / المملكة العربية السعودية.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

بشائر الربيع

على الضفاف،
حيث يرقّ الماء ويَعْذُب،
تتفتح عرائس النَّيْلُوفَر،
وتأخذ الواحدة منها بيد الأخرى،
مؤلِّفةً سمفونية راقصة من اللون والعطر...

* * *

د. مهدية أمنوح*

المجتمع الإنساني الآمن
من منظور رسائل النور

الأمن في اللغة العربية وفي آيات القرآن الكريم وأحاديث السنة النبوية الشريفة يعني "الطمأنينة" -المقابلة للخوف والفزع والروع- في عالم الفرد والجماعة، وفي الحواضر ومواطن العمران، وفي السبل والطرق، وفي العلاقات والمعاملات، وفي الدنيا والآخرة جميعًا. ولقد أَوْلى علماء المسلمين الأوائل اهتمامات كبيرة بهذا الموضوع وبوَّؤُوه موقعًا مهمًّا في دراساتهم، وذلك كما فعل أبو الحسن الماوردي في كتابه "أدب الدنيا والدين" حين أشار إلى قاعدة مهمة من قواعد انتظام العمران قائلاً: "أما القاعدة الرابعة فهي أَمْنٌ عام تطمئن إليه النفوس، وتنتشر به الهمم، ويسكن فيه البريء، ويأنس به الضعيف". وقد قال بعض الحكماء: "الأمن أهنأ عيش، والعدل أقوى جيش، لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ويحجزهم عن تصرفهم، ويكفهم عن أسباب المواد التي بها قوام أَوَدِهم، وانتظام جملتهم".

ويرجع الأمر في أصله إلى قاعدة أخرى وهي العدل، فالأمن من شروط العدل. إذن، لا يُتصور أمنٌ في غياب العدل، كما لا يُنتظر عدلٌ حيث لا يرجى أمن.

ولعل الماوردي في تصنيفه للقواعد الأساسية التي يستقيم بها أمر الدول وتصلح به الدنيا، قد أثر في دراسات غيره من الخَلَف الذين اهتموا بالعمران البشري وأسباب ازدهاره وأفوله؛ مثل ابن خلدون الذي ذهب في تفسير مسألة الأمن تفسيرًا اجتماعيًّا وحضاريًّا.

وفي العصر الحديث، ظهرت رسائل النور لمؤلفها الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، التي هي تفسير قيّم وحقيقي للقرآن الكريم، وبيانٌ وإثبات للحقائق الإيمانية القرآنية إثباتًا مدعمًا بالحجج الرصينة والبراهين الواضحة، تسير بخُطى ثابتة نحو إعادة النظر في قضايا الإنسانية الشائكة والمستجدة في ظل القرآن الكريم وبنور توجيهه.

الإسلام في منطق رسائل النور هو الروح الإنسانية الكبرى الذي ينبغي على كل من أراد أمنًا وسلامًا وصلاحًا أن يجعله قضيته المصيرية ويفوز في ظلالها بشهادة الإيمان ويحترز من التفريط في صيانتها، فمن لم يرعها حق رعايتها فسوف يضيع حتمًا تلك القضية ويخسرها.

لقد بيّن بديع الزمان قيمًا إيجابية عديدة لهذه الرسائل لكونها: "حلت أكثر من مائة مسألة من أسرار الدين والشريعة والقرآن، وأوضحتها وكشفتها، وألجمت أعتى المعاندين الملحدين وأفحمتهم، وأثبتت بوضوح كوضوح الشمس، ما كان يُظَنّ بعيدًا عن العقل من حقائق القرآن؛ كحقائق المعراج النبوي، والحشر الجسماني، أثبتتها لأشد المعاندين والمتمردين من الفلاسفة والزنادقة حتى أدخلت بعضهم إلى حظيرة الإيمان".

"فرسائل النور هذا شأنها لابد أن العالم وما حوله، بأجمعه سيكون ذا علاقة بها، ولا جرم أنها حقيقة قرآنية تشغل هذا العصر والمستقبل وتأخذ جل اهتمامه، وأنها سيف أَلماسِيّ بَتّار في قبضة أهل الإيمان".

وإذا كان الأمر كذلك، فلابد أن ما في الرسائل قد هيأ للإنسان بل للبشرية جمعاء، ما هي في أمس الحاجة إليه ألا وهو الأمن الاجتماعي.

فما هو السبيل الذي نهجته هذه الرسائل لتمكين الإنسان من المنهج الصحيح والصائب لإحياء ذاته روحيًّا وماديًّا، كي يحقق منها ذاتًا مكرَّمة كما شاء لها الحق أن تكون، ويهيّء من عددها الكثير، مجموعًا بشريًّا نافعًا ومعمرًا في الأرض؟

للإجابة على هذا السؤال المركب، نقف على شاهد من رسائل النور يبرز لنا المقومات التي اشترطها بديع الزمان سعيد النورسي، لضمان استتباب الأمن في المجتمع الإسلامي، يقول فيه: "ليس المسلمون بحاجة إلى ترغيبهم وحثهم على حب الدنيا والحرص عليها، فلا يحصل الرقي والتقدم، ولا يُنشَر الأمن والنظام في ربوع البلاد بهذا الأسلوب، بل هم بحاجة إلى تنظيم مساعيهم، وبث الثقة فيما بينهم، وتسهيل وسائل التعاون فيما بينهم. ولا تتم هذه الأمور إلا باتباع الأوامر المقدسة في الدين والثبات عليها، مع التزام التقوى من الله وابتغاء مرضاته".

إن الأمن الذي يطلبه المسلمون -وينتظره سائر البشر معهم لا محالة- هو الأمن الذي يأتي من المساعي المنظمة والثقة المبثوثة في النفوس والتعاون المستتب بين الأفراد. وهذه الشروط هي بمثابة مقومات أساس تجتمع حول مقوم محوري هو الدين، وذلك بالتزام التقوى وابتغاء مرضاة الله ﷻ.

إن التوجيه النوري في هذا المقام، يعطينا فكرة تقريبية عن ركائز الأمن المؤسس لأنموذج إنساني متميز يمكن إجماله في عناصر ثلاثة نتصورها كالآتي:

١- ارتباط المسؤولية بالرغبة الصادقة لتحقيق الأمن

جاءت رسائل النور مهتمة بالإنسان، وملقنة إياه كيفيةَ التفكير من خلال منهج جديد تعطى فيه الأولوية للواجبات.

إذ إن "أمام الإنسان -ولا سيما المسلم- مسألة مهمة وحادثة خطيرة هي أعظم من الصراع الدائر بين الدول الكبرى لأجل السيطرة على الكرة الأرضية". إنها قضية الحرص على أداء الواجب الضروري الذي يفتح للناس أفق الفوز بشهادة الإيمان.

وعلى لسان بديع الزمان ينطق طلبة النور: "نحن معاشر طلبة النور نعلم يقينًا، أن ترك خدمات عظيمة تُكسب لنا تلك القضية، وإهمالَ مهماتِ وكيلِها الذي يصونها لتسعين بالمائة، والانشغال عنها بما لا يعني من أمور خارجية واهتمامات تافهة كأن الدنيا خالدة، ما هو إلا من سخافة العقل وجنونه".

ويزداد الشعور بالمسؤولية ثباتًا بتأكيدهم أنهم "على يقين

تـام واطمئنان كامل من هذا"، ويصـل الإخلاص للقضية إلى حـد أنه "لو ملك أحد عقلاً وإدراكًا للأمور أضعافَ ما يملكه الآن، لبذله كله فيما يلزم تلك القضية وفي سبيلها".

إن انطـلاق مبـدع رسـائل النور فـي عالم النـاس مصلحًا ومغيـرًا، تميز عن غيره ممـن أصلحوا ودعوا إلى التغيير بثقته التي تفوق التصور.

فممـا لا شـك فيه أن الإيمـان بالقضية ونـذر النفوس في سـبيل الدفاع عنها، هو بمثابة مولّد طاقة نفسـية عجيبة تتجلى مظاهره في شـخصية صاحـب القضية الذي يعـرف منطلقاته جيـدًا، كما يجيد تلمُّس طريقـه نحو أهدافه بوضوح، دون أن يترك فراغًا يتسرب منه شك أو خوف أو قلق. فيستقبل الزمان بتفـاؤل وأمل كبيرين حين يقـول: "نحن لا نهاب هذا الموت الذي ينتج حياة أشد وأقوى وأبقى. فمتى لو متنا نحن فسيبقى الإسـلام حيًّا سـالمًا"، سـيما وأن الإسـلام في منطق رسـائل النـور "هو الروح الإنسـانية الكبرى" الذي ينبغي على كل من أراد أمنًا وسـلامًا وصلاحًا أن يجعلـه قضيته المصيرية ويفوز في ظلالها بشـهادة الإيمان ويحترز مـن التفريط في صيانتها، فمن "لم يرعها حق رعايتها، فسوف يضيّع حتمًا تلك القضية ويخسرها".

وهكـذا حرصت الرسـائل النورية علـى زرع روح الرغبة الهادفة والإرادة المسؤولة لتحقيق الأمن الاجتماعي، معتمدة التذكير بالملاحم البطولية في تاريخ المسـلمين، وجاعلة من أسـماء القواد المنتصريـن دوافـع حقيقية لتنميـة وترقية حس المسـؤولية لدى المعنيين الأول بهذه الرسائل. ويتجلى الأمر ذاته حين يخاطبهم صاحب الرسائل النورية خطابًا، يحثهم فيه على إعلاء هممهم لبلوغ أهدافهم باستحقاق قائلاً: "على كل واحد منكم أن يكون مرآة عاكسة للإسلام... ومثالاً مشخصًا للأمـة الإسـلامية، إذ الهمة تتعالى بعلـو المقصد، والأخلاق تتسامى بغليان الحمية الإسلامية".

وهكـذا تتوالـى بينـات رسـائل النـور فـي تعميـق الوعي عنـد المخاطب بضـرورة الحضور الفاعـل والمؤثر لتحريك واقـع المسـلمين السـاكن، فهو شـرط أسـاس لضمان الأمن الاجتماعي المنتظر.

٢- اعتبار المجتمع المؤمن هو المجتمع الآمن

إنهـا حقيقة قرآنية أكدها الحق ﷻ فـي قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْـتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْـتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِـمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُـمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِـنْ بَعْدِ خَوْفِهِـمْ أَمْنًا﴾(النـور:٥٥)، ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَـحَ فَـلاَ خَـوْفٌ عَلَيْهِـمْ وَلاَ هُـمْ يَحْزَنُونَ﴾(الأعـراف:٣٥)، ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾(الكهف:٨٨).

أنزل الحق تعالى هذه الآيات ليُطَمئن بها قلوب المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ويبشرهم بتحقيق أمنهم في الحياة وبعد الممات أيضًا.

مـن الواضـح أن العلاقات في مجتمـع الإيمان تسـتدعي الحـب والسـلام والتعـاون والتكافـل والوحـدة، وكل القيـم الأخـرى التـي تؤدي إلى تحقيـق مصالح الفـرد والمجتمـع، وبالتالـي تحقيق أمـن الفرد والمجتمـع على أكمل وجه. وفي هذا السـياق يأتي الأستاذ سـعيد النورسي ببراهين خاصة كي يؤكـد حاجـة الأمن إلى الإيمان، مشـيرًا إلى أن البشـرية التي أخذت تصحو وتتيقظ بنتائج العلوم والفنون الحديثة، أدركت كنه الإنسـانية وماهيتها، وتيقنت أنه لا يمكنها أن تعيش هملاً بغيـر ديـن، بل حتى أشـد الناس إلحادًا وتنكـرًا للدين مضطر إلى أن يلجأ إلى الدين في آخر المطاف، لأن: ""نقطة استناد" البشـر عند مهاجمة المصائب والأعداء من الداخل والخارج مـع عجـزه وقلة حيلتـه، وكذا "نقطـة اسـتمداده" لآماله غير المحدودة الممتدة إلى الأبد مـع فقره وفاقته، ليس إلا "معرفة الصانـع" والإيمان به والتصديق بالآخرة، فلا سـبيل للبشـرية المتيقظة إلى الخلاص من غفوتها سوى الإقرار بكل ذلك".

إن الايمـان بالغيب وبالقدر خاصة، يمنح "خفة بلا نهاية، وراحة بلا غاية، وسرورًا ونورًا يحقق الأمن والأمان".

إن مثَـل الـذي يؤمـن بالقدر كمثَـل من يحمل ثقـلاً بقدر الدنيـا "لأن الإنسـان لـه علاقـات مـع الكائنات قاطبـة، وله مقاصـد ومطالب لا تنتهيـان، إلا أن قدرته وإرادته وحريته لا تكفي... ومَن يفهم مدى ما يُقاسـيه الإنسـان من ثقل معنوي في عدم الإيمان بالقدر وكم هو مخيف وموحش".

يحرص الأسـتاذ سعيد النورسي وهو يرسم بريشة المبدع صـورة من يخرج عـن القاعـدة الأصلية والفطريـة ويحجب رؤية الحقائق الإيمانية عن قلبه وعقله، على أن يثبت بالدليل النقلـي والعقلي، أن الشـر والقبح والباطل والسـيئات جزئي وتَبَعِـيّ وثانوي في خلقة الكون، وأن الأصل في الإنسـان هو اعتباره أشـرف المخلوقات وأكرمها، كما أن الخير والحسـن والجمال والإتقان والكمال هو السائد المطلق في نظام الكون

وهـو المقصود لذاتـه، أي هو المقاصد الحقيقية للصانـع الجليل.

إنـه بذلك يفتـح أفقًا مشـرقًا مفعمًا بالأمـل فـي تحقيق الأمـن الاجتماعي، من خلال مَعبَر الإيمان في نفوس أفراد المجتمـع بتنـوع أعمارهم وأوضاعهم. فالأطفال "الذين يمثّلون ربـع البشـرية، لا يمكنهم أن يعيشوا عيشة إنسان سوي ينطوي على نوازع إنسانية، إلا بالإيمان بالآخرة".

وكـذا غيرهم مـن الفئـات العمرية الأخـرى كالشـيوخ "الذيـن يمثّلـون ربـع البشـرية، فإنهم لا يرون السـلوان حيـال انطفاء حياتهـم ودخولهم تحت التـراب... إلا بالإيمـان بالآخرة... إذ لـولا هذا الإيمان لبقوا في حالة نفسية تعسة جدًّا".

وكذلـك المرضـى والمظلومون والفقراء والمسـاجين... فلـولا نـور الإيمان الـذي يمدهم بالعزاء والسـلوان، لما زال عنهم القلق والاضطراب وصورة التأثر جزئيًّا أو كليًّا.

فكمـا نلتمـس آثار الأمن في نفس الفـرد المؤمن، نجدها بارزة في الوسط الأسري، باعتباره دائرة تتسع لعلاقات القربى والرأفـة والمحبة التي لا تقاس عندئذ ضمن زمن قصير جدًّا، بـل تقاس على وفق علاقات تمتد إلـى خلودهم وبقائهم في دار الآخرة والسـعادة الأبدية. ومن ثم "تبدأ السعادة الإنسانية الحقـة بالتألق في ذلـك البيت"، والعكس صحيح إن لم يكن "الإيمان بالآخرة" حاكمًا ومهيمنًا في بيوت الناس.

بعد هذا يضيف الأستاذ سعيد النورسي دائرة أخرى أوسع من الثانية وهي دائرة المدينة، وما هي في حد ذاتها سوى بيت واسـع لسكنتها. فإن لم يكن الإيمان بالآخرة ثابتًا فيها "كانت معاني الإرهاب والفوضى والوحشـية حاكمة ومسيطرة تحت اسـم النظام والأمن والإنسانية التي يظهرونها، وحينئذ تتسمم حياة تلك المدينة" وتنخرم فيها صفات المجتمع الآمن.

بعد اسـتقراء أحداث كثيرة واستنباط أفكار متعددة، يؤكد الأسـتاذ سـعيد النورسـي أن المجتمع الآمن هـو المجتمع المؤمـن، وأن المجتمـع المؤمـن هـو المجتمـع المسـلم. ويخلـص إلى أن "المسـلمين خدام القـرآن"، يتبعون البرهان ويقبلـون بعقولهـم وفكرهـم حقائـق الإيمان، وهم ليسـوا كمن تـرك التقليد بالبرهـان تقليـدًا للرهبان كمـا هو دأب أتبـاع سـائر الأديـان. وهـو فـي ذلـك يستبشر أن المستقبل الذي "لا حكم فيه إلا للعقل والعلم، سـوف يسـوده حكم القـرآن الذي تسـتند أحكامه إلى العقل والمنطق والبرهان".

إن الأمن الذي يطلبه المسلمون هـو الأمـن الـذي يأتـي مـن المساعي المنظمة والثقة المبثوثة في النفوس والتعاون المستتب بـين الأفراد. وهـذه الشروط هـي بمثابـة مقومـات أسـاس تجتمع حول مقـوم محوري هو الدين، وذلـك بالتزام التقوى وابتغاء مرضاة الله ﷻ.

وبالتالـي فالإسـلام هـو المؤهـل الوحيد للسـيادة مسـتقبلاً، لأن الحقيقة الإسـلامية هي الكفيلة بإسـعاد البشرية بمـا تقدمـه مـن منظومـات تصوريـة وأخلاقيـة نافعـة وبانية شـرطَ أن تُفعّل فـي الواقـع، وهو ما سـنبين ملامحه في المقوم التالي.

٣- تفعيل الأخلاق القرآنية مرآة المجتمع الآمن

سـبقت الإشـارة إلـى أن رسـائل النور هـي عبارة عـن إعادة دراسة تاريخ الإنسانية وواقعها، على ضوء ما جاء في القرآن الكريـم من أدلة منهجية ربانية منفتحة على حقيقة الحياة، من خلال اليقينيات الكونية كما يشـرحها القرآن الكريم، فتآلفت الرسـائل حـول نقطـة محورية هـي توضيح الحقائـق الدينية والإيمانية المتعلقة بالإيمان بالله وبرسـوله وباليوم الآخر.. إذ تهدف من وراء ذلك إلى رسم صورة معالم التربية الأخلاقية في الإسـلام، بإثـارة البحث في المسـألة الأخلاقية من زاوية علاقتهـا بالخالـق، وعلاقتهـا بالخلـق، وعلاقتهـا بالكـون والطبيعة، وعلاقتها بالنفس... كي تؤسس رؤية أصيلة مفادها أن الأصـل الأخلاقـي في الثقافة الإسـلامية هـو أصل ديني. فـلا أخلاق بدون دين، كما لا دين بـدون أخلاق. والإخلال بالدسـتور الأخلاقي الإسلامي، سرعان ما يؤدي إلى اختلال توازن المجتمع.

لقـد أدرك الأسـتاذ بديـع الزمان سـعيد النورسـي العلل والأسـباب الثاوية وراء اختـلالات مـن هـذا النوع، وسـلط منظـاره الفاحـص علـى المفاسـد الاجتماعيـة فـي عصـره، فوجدهـا مختزلـة فيمـا سـماه بالأعـداء الثلاثـة: الخـلاف، والجهل، والفقر.

• إن المقصـود بـ"الخـلاف"، هـو الاختـلاف السـلبي

حيـن يحـاول كل واحـد تخريـب مسـلك الآخريـن وهدمه، ومبعثـه الحقد والضغينة والعداوة. وهو مردود شـرعًا؛ حيث المتنازعون والمختلفون يعجزون عن القيام بأي عمل إيجابي بنّاء. وكأننا بهم وهم ينحازون جانبًا، سـائرين وفق أغراضهم الشـخصية يمهدون السبيل لفتح الأبواب أمام أولئك الأعداء ليدخلوا حرم الإسلام الآمن.

وتحسُّبًا لهذا الأمـر الخطير الذي ألمّ بالأمة الإسـلامية، يوصي الأستاذ سعيد النورسي بتفعيل القيم الأخلاقية في هذا البـاب قائلاً: "عودوا إلى رشـدكم، وادخلـوا القلعة الحصينة المقدسـة: ﴿إِنَّمَـا الْمُؤْمِنُـونَ إِخْوَةٌ﴾(الحجـرات:١٠)، وحصنـوا أنفسكم بها من أيدي أولئك الظلمة الذين يستغلون خلافاتكم الداخليـة... فإن كنتم حقًّا مرتبطين بملة الإسـلام، فاشـهدوا بالدستور النبوي العظيم: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا". (رواه البخاري)".

• أما "الفقر" أو البؤس -حسب ما يسميه أحيانًا- فإنه الوجه المظلـم للاختـلال الذي يصيـب البنية الاقتصاديـة من جراء الاسـتغلال السيء للثروات، وهو ما يصيب البنية الاجتماعية بتفـكك ويزيد من ظاهرة التخلف، حيـث يقل الأمن أو يكاد ينعدم. وقد أجاب الأسـتاذ سـعيد النورسـي عندما سـئل عن هذا الإشـكال المادي بأن "هناك كلمتين هما منشـأ جميع ما آلت إليه البشرية في حياتهم الاجتماعية من تَرَدٍّ في الأخلاق وانحطـاطٍ في القيـم، الكلمة الأولى: إن شـبعتُ فلا عليّ أن يموت غيري من الجوع. الكلمة الثانية: اكتسب أنت لِآكُل أنا واتعب أنت لأسـتريح أنا... وإن الـذي يديم هاتين الكلمتين ويغذيهما هو: جريان الربا، وعدم أداء الزكاة".

وعليـه فالحـل الناجـع يكمـن فـي تفعيـل قيـم التكافل الاجتماعي في الإسلام؛ بإعانة المحتاج والكف عن استغلال المعسر وإثقال كاهله بغير وجه حق. وذلك بتطبيق الزكاة في المجتمـع وفرضها فرضًا عامًّا، وتحريم الربا تحريمًا كليًّا.

وبهذيـن الفعليـن يتوطـد الركـن الأصيل في بناء سـعادة البشرية وأمانها.

• أمـا ثالثـة الآفات الاجتماعيـة فهي "الجهـل". والجهل درجـات ومراتـب وأنـواع، ودركها الأسـفل مـا تعلق بجهل الدين وحقيقته، وما نتج عنه من مخالفة الشريعة.

والـذي أثار بديـع الزمان سـعيد النورسـي في عصره، هو إهمـال المعرفـة الدينيـة وخاصـة فـي صفوف الشـباب، مما حدا به إلى تأسـيس مدرسـة النور المنتشـرة في بقاع الأرض الواسـعة... فكتابة الرسائل واستقطاب التلاميذ بأعداد كبيرة، كان إسـهامًا إصلاحيًّا متميزًا في حياة الأتراك وحياة الإنسانية عامة.

ولعـل المطّلـع على الرسـائل في تفاصيلها، يـدرك جيدًا الأهـداف العملية التي توخاها الأسـتاذ سـعيد النورسـي من مكافحـة الجهـل. فقـد كان يرمي إلى إصلاح البنيـة التعليمية الدينيـة شـكلاً ومضمونًـا، فدعا إلى توحيد المـدارس الدينية وإصلاحهـا، وإنقـاذ الإسـلام من الأسـاطير والإسـرائيليات والتعصـب الممقـوت، وفَتْحِ طريـقٍ لجريان العلـوم الكونية الحديثـة إلـى المدارس الدينية بفتح نبـع صـاف لتلك العلوم بحيـث لا ينفـر منها أهل تلك المـدارس... إلى غير ذلك من الطموحات التي أصبحت واقعًا متحققًا بفضل المنهج العملي للتربية النورية، الذي حرص صاحبه على تطبيق معالم التربية الإسلامية الأصيلة باعتماد الأخلاق القرآنية سلوكًا ونظرًا.

وبعـدُ، فممـا لا شـك فيـه، أن الغاية الأساسـية من رصد مقومات المجتمـع الآمن في رسائل النور، هي تقريب الحِكَم القرآنيـة الجليلة في إصلاح أحوال المجتمعات إلى الأذهان، والإسهام في توجيه الأنظار نحو الأساليب العملية الكفيلة بنقل الحقائق الإسـلامية -فيما يخص بنـاء المجتمعات وتعهدها- إلى واقـع التجربة التطبيقية وإبراز أبعادها الحضارية الفاعلة.

وبذلك نكون قد قدّمنا باختصار شـديد، ما أهدته رسائل النور للإنسانية الباحثة عن سُبل السلام وأسس الأمن والأمان. ■

(*) أستاذ الفكر والحضارة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية-تطوان / المغرب.

المراجع

(١) كليـات رسـائل النـور (الكلمـات، المكتوبـات، اللمعـات، الشـعاعات، الملاحق، صيقل الإسـلام)، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

(٢) أدب الدنيـا والديـن، لأبي الحسـن الماوردي، الطبعـة الأولى، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

(٣) مدخل إلى نظرية الأمن والإيمان في سـعادة الإنسـان وتقدم المجتمعات، لعبد الوهاب محمود المصري، الطبعة الأولى، مؤسسـة الرسـالة، بيروت ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

(٤) الإسـلام ملاذ كل المجتمعات الإنسـانية، لمحمد سـعيد رمضان البوطي، الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

(٥) الإسـلام والأمن الاجتماعي، لمحمد عمارة، الطبعة الأولى، دار الشـرق، القاهرة، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

أ.د. عرفان يلماز*

حكاية أكل النمل

مرحبًا عزيزي الإنسان.. أرجو أن لا تستغرب من شكل أنفي وفمي كثيرًا. أعرف أنك لم تعتد على رؤية نوع مثلي بين الحيوانات. لكنني لا أشكو من ذلك أبدًا، لا شك أن هناك حِكَمًا كثيرة وفوائد عديدة في هذه الخِلْقة التي أبدعها خالقي العليم الخبير. أعتقد أنك لم تر مخلوقًا غريبًا مثلي عن قربٍ إلا في الأفلام الوثائقية التي تتحدث عن عالم الحيوانات في الكرة الأرضية. ولكني على يقين أن استغرابك سيزول عندما تعرفني عن قرب، وعندما تعرف كذلك أني مخلوق ترجمان لأسماء الله الحسنى في هذا الكون.

فأنا لم أُبدع شكل رأسي وفمي ولساني ومخالبي على هذا الشكل الذي يساعدني كثيرًا في أكْل النمل. ولكن لو سألتم علماء الوراثة لسمعتموهم

يدعـون أننـا نحن مَن قام بتطوير المخالـب القادرة على حفر أعشـاش النمـل، ونحن مَن نمّى اللسـان الطويـل الذي يبلـغ طولـه نصـف مترٍ لاسـتخدامه في التقـاط النمـل، ونحن مَن طـوّل الرأس الأنبوبي، ونحـن مَن مدّد الخَطْم الرفيـع؛ وذلك من خلال الممارسـة الطويلة عبر الأزمنة الطويلة، أو أن هذه الأعضاء تطوّرت من تلقاء نفسها وظهرت فينا، صدفةً من غير حساب(!) فما علينا إلا أن نقول لهؤلاء: لماذا لم تقوموا أنتم بتطوير أعضائكم لتسـهيل حياتكم التي تعيشـونها؟! المعذرة؛ ولكن يصعب على العقل أن يستوعب ويفهم هذه الادعاءات والآراء من مخلوق إنسان. بيد أن هؤلاء الناس من البشر، لو اعترفوا بقدرة الله تعالى وأبصروا صنعه البديع في خلقه وفقًا للبيئة التي يعيشـون فيها، لَانْحلـت كل الألغاز واتضحت كل الحِكَم والأسرار.

فالشـكل الخاص لرأسي وفَكّي ولساني ومخالبي مصنوع وفقًا لشـكل جسـمي ووفقًا لتلبية غذائي ومن ثم إدامة نسـلي وذريتـي في هذه الحياة، لذلك لا يمكن للثدييات الأخرى أن تجد أعشاش النمل والتقاطها مثلي بكل هذه السهولة.

أنا وأشقائي

وكونـي أعيش في غابات أمريكا الوسـطى وأمريـكا الجنوبية فقـط، لعل معظمكم لم يرني أبـدًا، أو رآني في بعض حدائق الحيوانـات. يعيـش اليـوم منـا أربعة أنـواع. فأنا مـن أضخم آكلات النمل، يبلغ طولي ١٣٠ سم، ووزني ٤٠ كغ. أُعرَف بـ"آكل النمل العملاق". كما يوجد بيننا نوعان متوسـطان من حيث الحجم، هما "آكل النمل المطوق" و"البنغول". أما "آكل النمـل الحريـري" فهو أصغرنـا حجمًا حيث يبلـغ طوله ٢٠ سـم ويزن ٤٠٠ غرام، سـمي بـ"آكل النمل الحريري" بسـبب شعره الحريري الطويل. والطول الذي أذكره هنا لا يدخل فيه الذيل الذي يوازي طوله جسمه، بل ويتجاوز ذيل "آكل النمل الحريري" طول جسمه.

وإذا كان بعـض أنواعنـا ينشـط في الليل نحـو رزقه كآكل النمـل الحريري، فإن الآخرين مثلي يسـعون وراء رزقهم في النهار. وأنا باعتباري من آكلي النمل الضخام، مهيَّؤٌ من الناحية التشـريحية للعيش على الأرض، وقلما أتسـلق الأشجار. أما آكل النمـل الحريـري، فمهيّـؤ للعيش على الأشـجار بسـبب حجمـه الصغيـر ومخالبه التي تشـبه الكَلَّابـات، ولكنه يعيش مثلـي علـى الأرض في بعض الأحيان. تتمـع أرجلنا بالقدرة على الحفر والتسـلق والسـير على اليابسـة، ولكـن في نهاية المطـاف الـكلّ منّا يمارسُ عمله الذي يناسـب طبيعته. وكأن الطبيعـة تعقـد معنـا اتفاقيـةً سـريةً تـوزع خباياها بيننـا؛ ففي الوقت الذي أقتات فيه النمل في أعشاشـها على الأرض، فإن الآخرين يقتاتون من بيوت النمل على الأشـجار، الأمر الذي يزيل الجدل والتنافس فيما بيننا. فالله سبحانه وتعالى قد قسّم الأرزاق بيننا وأودعها في أماكن مختلفة.

يلقّبنـا علمـاء الأحيـاء بـ"اللاَّسِـنِّيَّات" (Edentata)، فجميـع أنواعنا بلا أسنان. يتكوّن فَمُنا من فتحة بيضوية في نهاية أنفنا الطويل الرفيـع. ومن السـهل أن تسـتوعبوا الحكمة من خَلْق رؤوسـنا أنبوبيّـةً -والتي يبلـغ طولها ٣٠ سـم- إذا ما عرفتم طريقة التغذية لدينا نحن آكلي النمل. هذا وقد يشّكل اللسان الرفيـع المكور والطويل أهم أداة لفمي الخالي من الأسـنان. ولعل لسـاني هذا يشّـكل الرقم القياسـي في الطـول إذ يبلـغ ٦١ سـم، بينمـا يبلـغ ٤٠ سـم عند الأنـواع الأخـرى. يتميز اللسـان عندنـا بميزتيـن هامتيـن: فالأولى أنه مغطى بأشـواك صغيـرة مدبَّبَـة كأنها مبـاردُ مائلة نحو الداخل تكسـوها طبقة سميكة لزِجَة لاصقة من اللعاب، والثانية أنه على شكل سَوط ويمكننـي أن أخرجـه وأدخله إلى فمي بسـرعة تبلـغ أكثر من ١٥٠ مرة في الدقيقة.

وفـي هذه الأثنـاء، أولاً أقلـص عضلات المضـغ باتجاه الوسـط في نصفَي فكي الأسـفل، ثم أُكوِّر فمي جيدًا. وبينما تُقلّـص عضلاتُ الحنك في فمي أطـرافَ مؤخرة عظم الفك السـفلي، ترتفـع فـي الأمام لسـدّ فمي، وبحركة لسـاني هذه ترتفـع طاقة الهضم لديّ. أما العضلـة التي تتحكم في حركة لسـاني فهي عضلـة "Sternoglossus" المرتبطـة بقاعدة صدري. وإني أسـتطيع بلسـاني التقاط جميع النمـل من داخل العش حتـى وإن لـم أرها بعيني. فكما أنكم أنتم البشـر تسـتطيعون التمييز بألسـنتكم بين الضارّ والنافع، فكذلك نسـتطيع نحن التمييـز بين النمل وحبات الرمال وغيرها من الأشـياء التي لا تـؤكل، فأطرحها إلـى الخارج ثم أمضـغ النملات بعظام فكي الصلبة وأبتلعها.

تصميم عجيب لمعدتي

سـأحدثكم هنا عن خاصّيَّة أخـرى لا يمكن إحداثها بالتطور. تعلمـون أن المعـدة تحتـاج إلـى حموض عاليـة لكي تهضم البروتينـات، ولذلـك تشـترك جميـع الثدييات بوجـود غدد

خاصة في المعدة تقوم بإفراز حمض كلوريد الهيدروجين (HCl)، أي حمض كلور الماء، ولولا هذا الحمض في المعدة لما تم هضم البروتينات. إلا أن معدتي لا تحظى بهذه الغدد ولا يحدث فيها أيَّ إفراز حمضي. هذا دفعكم إلى التفكير أني أعاني من مشكلة هضم البروتينات، أليس كذلك؟ ولكن ربي، بعلمه الواسع، زوّد معشر النمل بحمض الفورميك للدفاع عن نفسها، الأمر الذي يغنيني عن الحاجة إلى إفراز الأحماض في معدتي، وأسدّ حاجتي إلى الحمض من حمض الفورميك الموجود في النمل هذه. فكيف يعقل أن نفسر هذه الآلية الفسيولوجية العجيبة المتمتعة بغذاء خاص، بنظرية التطور أو التكيّف أو الاختيار؟

لقد منحني ربي قدرة التمييز بين أنواع النمل، فأبتعد عن كبارها ذات الأفواه العريضة، لأن قشرتها صلبة وفي رؤوسها أسلحة كيماوية مختلفة. لذلك ألفظ هذا النوع من النمل ذات الروائح الكريهة لكي لا تفسد طعم فمي، وأبقى آكل عاملات النمل واليرقانات. ولكن عندما أقوم بجمع الطعام لا أنسى أبدًا مراعاة التوازن البيئي الحياتي، فلا أقضي على عش النمل الذي أعثر عليه كاملاً، بل أنتقل من عش إلى آخر بعد وجبة لا تتجاوز ١٤٠ نملة. وهذه الكمية تشكل ٠,٥٪ من حاجتي اليومية إلى الغذاء. وبذلك أكون قد حافظت على العش من جانب، ومن جانب آخر لبّيتُ حاجتي من الغذاء قبل أن تنتبه عليّ عساكر النمل. أحتاج إلى ما يزيد عن ٢٥٠ عشًّا من أجل تناول ٣٥,٠٠٠ نملة كبيرة (بطول ٨ مم) يوميًّا.

كما ترون، أتناول كميات محدودة من النمل، فمن جانب أكون قد أشبعت بطني، ومن جانب آخر أكون قد أديتُ وظيفتي في منع النمو المفرط للنمل. كان بإمكاني أن آكل كل النمل الموجودة في الأعشاش مرة واحدة، ولكن أعرف أن هذا سيؤدي إلى انقراض إمبراطوريات النمل خلال فترة قصيرة في كل منطقة أَنْزل فيها، فأقعد حينئذ مذمومًا مدحورًا، أتلوى وأتضوّر من الجوع. فلكي لا أقع في حرجٍ كهذا، أكتفي كل يوم بالقليل من النمل من كل عش، وأمنح فرصة النمو والتكاثر لهذه النمل لتعويض ما أكلتُه منها، عندئذ تظل الأعشاش قائمة، وأتمكن أنا كذلك من تأمين الطعام في اليوم التالي فالتالي بنفس المنطقة... ولكن أخشى أن تظنوا أن اقْتياتي على هذه الطريقة مع مراعاة التوازن البيئي، وجدتُه أنا من تلقاء نفسي وبعلمي غير الموجود أساسًا؟!

نعرف جيدًا نوع النمل التي تحمل في رؤوسها أسلحة كيماوية قوية ونتجنّبها. وأَفْضَل ما نفعله عند فقداننا النمل، أننا نقوم بزيارة خلايا النحل فنتذوق بعض عسلها ونتناول بضع نحلات منها.

من الطبيعي أن يكون لي أعداء. فالنمر الأمريكي وأسد الجبال من فصيلة السنوريات بأمريكا اللاتينية، تأتي في طليعة هؤلاء الأعداء. وليس لي ما أدافع به سوى قدميّ الخلفيتين وذيلي، إذ أعتمد عليهما لرفع جسمي والانقضاض على عدوّي بفكّي ومخالبي. ورغم قوة مخالبي الخارقة في الحفر، إلا أنها تظل ضعيفة في مقاومةِ ورَدْع هذه الحيوانات المفترسة. وبما أني لا أملك أسنانًا ولا أستطيع العضّ، فإن خيرَ وسيلة عند مواجهتي الخطر هو الهروب، أو الاختفاء دائمًا. أما أخطر أعداء أشقّائي الذين يعيشون على الأشجار، هي البوم والنسر والشاهين.

تتمتع يدي بخمسة أصابع، وأرجلي بأربعة أو خمسة أصابع. كما أني أملك أصابع صغيرة جدًّا مخفية تحت جلد اليد أيضًا. ويختلف عدد الأظافر الطويلة في الأصابع التي أستخدمها في حفر التربة أو في إزالة القشور من جذوع الأشجار. فَلِي ثلاثة أظافر طويلة، ولآكل النمل الحريري اثنان، وللتَّامانْدُو (Tamandua) أربع أظافر، هذه الأظافر أقوى وأسْمَك من الأظافر الأخرى لدينا. فتقوم أيدينا بذلك بدور آلة الحفر التي تنحني وتدور في كل الاتجاهات. حتى إن طول مخالب أنواعنا التي تتسلق الأشجار يصل إلى ٤٠ سم، حيث تستطيع من خلالها ومن خلال أذيالها الطويلة أن تتعلق بالأغصان وتتحرك بكل سهولة.

أعتمد على حاسة الشم القوية في البحث عن أعشاش النمل، وذلك لضعف بصري. فبمجرد التقاط رائحة نملة، أشرع على الفور بحفر الثقب الذي دخلت فيه، ألتقط أولاً عاملات النمل الخارجات منه ثم أحشر لساني في العش.

لباسنا يناسب المحيط الذي نعيش فيه، لا سيما وأن آكل النمل الحريري، بارعٌ جدًّا في اختيار الأشجار ذات الأوراق الفضية التي تتفق مع لونه، الأمر الذي يمكّنه من التمويه والاختفاء فلا تستطيع الجوارح رؤيته بسهولة.

لا نملك أية قابلية في إصدار الأصوات، وليست لنا أصواتٌ عدا بعض الأنين الذي تصدره الأمهات عند الولادة، فنحن حيوانات صامتة. كما أننا لا نحتاج الماء؛ حيث تتميز

أجسامنا باستخراج الماء من القوت المتناوَل، ويتم بذلك سدّ الحاجة للماء بشكل أيضي. فهذه العملية تغنينا عن الحاجة إلى الماء دائمًا. تنتشر أعشاش النمل التي نمرّ عليها في اليوم الواحد على نصف كيلومتر مربع، وربما ترتفع هذه المساحة إلى ٦,٨٠٠ هكتار إذا كانت الأعشاش قليلة.

استمرارية نَسْلنا

تجتمع الذكور والإناث للتكاثر في فصل الخريف. إنها مرحلة تتم بتقدير إلهي. وبعد فترة الحمْل التي تمتد إلى ١٩٠ يومًا، تلد الإناث مولودًا واحدًا في فصل الربيع، كما تندر التوائم بيننا. تستند الأنثى أثناء الولادة على ذيلها الطري الناعم فتضع مولودها عليه، ويولد المولود مزودًا بالمخالب، ثم تقوم بإرضاعه ستة أشهر. هذا وقد تمتد صحبة الصغير لأمه -في بعض الأحيان- عامين، يكون عندها قد بلغ، ثم يبدأ البحث عن الأنثى رفيقة عمره. تقوم الأم بحمل صغيرها على الظهر في غالب الأحيان، ولا تضعه إلا عندما تغدو باحثة عن رزقها. لا تتحمل إناثنا أعباء رعاية الصغار وحدها، بل نحن الذكور أيضًا نشاركها في هذه المهمة الهامة. أما آكلات النمل الحريرية فتقوم بتلقيم صغارها بعض الطعام (نصف المهضوم) من النمل في فترة الرضاع.

إذا كانت صغارنا نحن آكلي النمل العملاقة تشبهنا، فإن صغار التّامَانْدو (Tamandua) لا تشبه أبويها بادئ الأمر إنما تدريجيًّا، حيث يتغير لونها من البياض إلى السواد حتى يتحقق الشبه بينها وبين أبويها. ليس لنا مأوى خاصًا نركن إليه، بل نلجأ إلى ظلال الأشجار فنلتحف أذيالنا وننام. ويلجأ التّامَانْدو إلى نُقْرَة في جذع شجرة ليستريح فيه، كما يستريح آكل النمل الحريري على أغصان الأشجار، إلا أنه لا يمكث في الشجرة الواحدة أكثر من يوم، وهو أيضًا يرعى -مثلنا- التوازن البيئي حينما يتناول النمل. نتمتع نحن وفصيلة التّامَانْدو، بمهارة التعرّف على إناثنا وصغارنا بفضل الرائحة القوية التي تصدرها غددها الشرجية. وقد تقوم غدد إفرازية في وجه آكل النمل الحريري، بمثل هذه الوظيفة أيضًا. كما أننا نستخدم رائحة لعابنا في التواصل فيما بيننا وفي تمييز الذين ينتمون إلى فصيلتنا كذلك.

إن معدّل الأيض في أجسامنا منخفض جدًّا، هذا ما يجعلنا نملك أقلّ معدل حراري جسميّ (٣٢,٧ درجة) بين الثدييات المشيمية. نحتاج إلى ٤-٨ ساعاتِ نشاطٍ يوميٍّ لتأمين

احتياجاتنا. تتمتع أنواعنا التي تعيش في المناطق الشمالية من القارة الأمريكية بلون واحدٍ كاشف بعض الشيء، بينما يغمق هذا اللون كلما اتجهنا صوب المناطق الجنوبية. هذا ويتفرّع كلٌّ من الأنواع الأربعة إلى فروع عديدة تبعًا لألوانها. فالنوع الذي أنتسب إليه يتفرّع إلى ثلاثة فروع، والتّامَانْدو المكسيكي إلى خمسة فروع، وآكل النمل الحريري إلى سبعة فروع تبعًا للأشجار والمناطق التي تعيش عليها.

إن خطر الانقراض يسري علينا نحن أيضًا... فعلى الرغم من أن لحمي لا يصلح للأكل، وجلدي ليس مرغوبًا وليست له تجارة شائعة، فإن بعض الناس يهوى مطاردتي وصيدي عبر الكلاب كنوع من الرياضة. ففي "فنزويلا" يسرق الناسُ صغارنا للتَّدْجين. ولكن أخطر تهديد نواجهه في الحقيقة هو تخريب البيئة والمحيط الذي نعيش في كنفه؛ فالنفايات الكيماوية، والسمادات الزراعية تلوِّث الأتربة والمياه، فتتخرب أعشاش النمل وتنحسر مناطقها وتقل أعدادها، فيتهدد قوتنا ويتهدد وجودنا.

أيها الإنسان.. حاولتُ أن أعرض لك جماليات وبديعيات صانعي الذي أوجدني من العدم وجهّزني بأجهزة يعجز العقل عن استيعابها وإدراكها. فأعتذر إن بدَر مني خطأ أو إن جاوزتُ حدّي في كلمة أو تفسير. فطلبي منكم أنا المسكين؛ أن ترحمونا وترحموا المخلوقات الضعيفة العاجزة الأخرى، وأن تحافظوا على الطبيعة ولا تفسدوا توازنها وجمالها المتكامل المتناغم، فإن الحياة تكفينا وتكفيكم... عفوًا... رأيتُ نملة تدخل الثقب، فعليّ الإسراع لأعثر عليها، إني أشعر بالجوع قليلاً، ثم لديّ أعمال كثيرة وزيارات عديدة لأعشاش النمل هذا اليوم. هيا إلى اللقاء. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: مصطفى حمزة.

محمد مساعدي*

إنني أشهد

هيّا بنا نُلامس فيضًا دافقًا من معاني "أَشهَدُ"، نحيا لحظات ربّانية، نُرخي العنان لحبال أفكارنا، نركب مطية العقل، نتدارس عصارة من التأمّلات حول أول كلمة من ركن الإخلاص والتوحيد، كلمة التقوى "أشهد أن لا إله إلا الله"، والتي نشيد عليها إسلامنا، ونعلن بها انتسابنا إلى أمة محمد ﷺ. نجدّد العهد والميثاق الذي واثقنا الله به في رحاب السمع والطاعة، نستشعر نعمة الله علينا ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(المائدة:٧)، نمشي في ركب السائرين إلى الله تحت ظلال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(الفاتحة:٥)، نصوغ مفهوم الأمّة في وحدة الوجهة "قبلةً"، ووحدة القلوب "اعتقادًا" في أسمى معانيها؛ "إذا اشتكى منها عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسّهَر والحُمّى"... في انسلاخ عن الفردانية المُميّزة للذات إلى تمسك متين بحبل الجماعة الممتدّ من الأرض إلى السماء، في سموّ ورفعة من غير وهن واستكانة نعلنها صيحة تهزّ أركان الكون: بالقرآن نحيا ونشيّد عمارة الأرض، لنا العلو والمجد.

"أَشهدُ" في الحاضر والمستقبل

هي إعلان لعهد وميثاق أزليّ يبدأ في الزمان منذ أن كنا نُطفًا في صلب أبينا آدم، حيث مسح ربّنا على ظهره، وأخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، ثم جعلَنا على صعيد واحد وأشهدنا على أنفسنا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، فنطق كل منا على لسان واحد ﴿بَلَى شَهِدْنَا﴾، فأخذ منّا ربنا موثقًا غليظًا، وأنذرنا ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾(الأعراف:١٧٢). شهادة سرمدية لا ينقطع أمدها أبدًا... فطرة الله التي فطر الناس عليها، ثم تتجدّد عند كل مسلم ناصيته للحق تبارك وتعالى... حين يلامس إحسان الرّبوبية قلوبَنا فيأسرها، فتألهه كل ذرة في أجسادنا، فتنطلق ألسنتا بقول "أشهد"، ثواني تنساب أنوارها على عمر الدّهر بأكمله... فهي تنقلنا منذ لحظة قولها من الفناء إلى الخلود، ومن الموت إلى الحياة... ترحل بنا من ضيق البقعة الأرضية التي نمشي في مناكبها من حيز الفضاء المستوعب لحركيتنا في الكون إلى جوار عرش الرحمن، لنفوز بمعيّة خالقنا، فتتحرر أرواحنا بهذه المعيّة من قيد كل زمان ومكان... ثم إن هذا الشعور الذاتي بالسموّ لكل فرد منا، هو الذي يعطي مجتمعًا لهذه الأمة حق الشهود الحضاري: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣)؛ شهادة على الناس باستحقاق، لما أوثقنا به أنفسنا من عهد مع من لا يَعزُب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. ثم إن التزامنا حاضرًا هو ملزم للمستقبل، فحين نشهد اليوم، فهي شهادة للغد بكل أبعاده في الزمان، نحيا ونموت ونبعث عليها، فالمرتدّ -أيًّا كان- لا يلغي انتسابه للأمّة فحسب، بل يلغي كرامته البشرية وإلى الأبد فتهدر إنسانيته.

"أَشهدُ" صرخة حُرّية

نعلنها صرخة حُرّية في وجه كل ظلم، تتناغم ونبضَ قافلة السائرين إلى الله: ملائكة، جن، نبات، حجر وشجر... نشهد لرب العزّة بوحدانيته في الوجود، وبانفراده بالخلق والأمر. نستهديه صراطًا مستقيمًا نلتزم به، لندخل محراب العبودية في ذل وانكسار وخضوع، بكمال محبة... لنحرّر أنفسنا -كما فككنا أسرها من قيد كل زمان ومكان- من ذل أيّ مخلوق جبار معاند ومكابر كان، أم ملك قاهر. ويكون لسان حالنا: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾(طه:٧٢). فلا خضوع ولا انكسار لغير بارئ البرايا وخالق الأكوان. فهو شعور بالرفعة وبالسيادة في الكون،

يرفعنا بعيدًا عن سفاسف الدنيا، فلا اغترار بمغرياتها، ولا انغماس في شهواتها، بل استشعار بوطء الأمانة وثقلها.

"أَشهدُ" ميلاد حياة سرمدية

بقولها يُنجبنا الزمان لتدبّ فينا الحياة الحقيقية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(الأنفال:٢٤). بعد لحظات ظاهرية نقضيها لهوًا ولعبًا، سيميتها التيه والضلال، نقتسمها وكل الأحياء "المعطلة" لا سمع ولا بصر ولا فؤاد. بقول "أشهد"، يحين الوقت لكل منّا أن يقول: أنا حيّ أرزق، فما شهد يومًا ميّتٌ في نازلة، وما كان لقاض عدل أن يأخذ بشهادة ميّت وإن نقلت له عن عدل ضابط. فلندع هذه الحياة النوعية تسري في عروقنا، ندرك ونحسّ ونستشعر الفضل الجليل والعطاء الجمّ الكثير في أنْ أوجدنا الحكيم الخبير من عدم، وأمدّنا الكريم الجواد بكل النعم. فنسلم له الناصية تألهه أرواحنا التي بعثت من جديد، فيُذكر ولا يُنسى، ويُطاع ولا يُعصى، ويُشكر فلا يُكفر. إلهًا يستلزم إنعامه أسر النفوس، وجماله الأخذ بالألباب، وعظمته انبهار الوجدان. وبهذا الاستشعار لنِعَم الله ينبجس ينبوع المحبة ليطهّر أغوار القلوب عشقًا تذوب له الأوصال، ثم تنقاد الجوارح في حركية طاعة لا حركية معصية، ولسان الحال ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(البقرة:٢٨٥). تظهر آثارها لتملأ الحياة عمارة في الأرض أخلاقًا وسلوكًا وعملاً، في صلاح وإصلاح، يبرز على أن انتماءنا لآدم هو انتماء نبوة لا انتماء جنس وحسب. فإرثنا نبوة، ومالنا ثقة بالله وتوكل عليه، فلا ضيق ينكد العيش ولا سعة تفرح الوجدان... فالكلّ موصول بخالقه منقطع عن كل مخلوق، وحسبه الله، منفصل الرجاء عن غيره، لا يعشُ عن ذكره، ولا يُعرض عن وصله.

"أَشهدُ" ينبوع علم

إنها باب علم معرفة الله ﷻ وتوحيده، ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾(محمد:١٩)، لذا ألزمنا الحق سبحانه بعلم ما تستلزمه هذه الشهادة لا بالقول به، فما نشهد إلا بما استيقنتْه قلوبنا، بعد أن أعملنا عقولنا تدبُّرًا في كتاب الله حرفًا حرفًا وكلمة كلمة، تتشرّبُ معانيها أفئدتنا، ثم تفكُّرًا نجول بنظرنا عبرة في آيات الله المبثوثة في الآفاق والأنفس، نخرج أنفسنا مِن زمرة مَن كانت أعينهم في غطاء عن ذكر الله، إلى زُمرة أولي الألباب الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض. فتغشانا السكينة، وتتلبّسنا الطمأنينة، أن الله واحد، لا ندّ ولا عدل له سبحانه... لنشيد صرحًا شامخًا من المعارف والمدارك على القاعدة الذهبية: "أَحَد أَحَد"، لننتج علمًا يتماشى والسننَ الكونية التي شاء الله تعالى أن يُقيم عليها خلقه... فتأتي علومنا الكونية توحيدية لا إلحادية وقد استقت روحها من كلام الحق ﷻ...

فيكون منهجُنا في كل العلوم، قراءة صفحات الكون باعتباره مخلوقًا لخالق خبير عليم حكيم، قراءة واعية يكون فيها شعارنا: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾(العلق:١).

"أَشهدُ" أمة وحضارة

لكل إنسان انتماء اجتماعي وآخر وجودي. فالأول يُعلم بمعرفة أبيه وأمه وفصيلته التي تؤويه، والثاني تتضح معالمه وأبعاده حين يعلن انتماءه لهذا الوجود كمخلوق لرب الأكوان وباريها: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾(الأنبياء:٩٢)، غير أن هذا لا يقف عند انتمائه المادّي كحلقة ضمن سلسلة الموجودات المادّية، يتساوى فيها الإنسان والحيوان والجماد في إطار تصوّر يلغي أفضليته في الكون ويخلع عنه لباس التكريم الرباني الذي حباه الله به، بل هو انتساب إلى أنماط فكر وقيم وأخلاق، وإلى ضرب من المعاملات والسلوكيات، تنمُّ عن تصوُّر عميق للحياة والكون، يتجاوز عالم الشهادة إلى عالم الغيب، ويعطي خصائص بارزة عن ذاتية حضارية لا مثيل لها، مكينة الجذور، غارقة الامتداد في أعماق الزمن، ثابتة الأصل... إنها الذاتية الحضارية لأمة محمد ﷺ، تفيض عطاء بخيريتها على كل الناس، تسود دون إقصاء للآخر، تحاكم العدو والصديق بما تحاكم به الذات، حاملة لواء الخير للغير، تعلم أن المخالف ما كان ليكون لولا وجود حيثيات ومفارقات صاغت وجوده، فتقرب وتقارب، توحد القلوب في إطار البعد الإنساني، وتوحد التصور في إطار البعد الوجودي، بحوار يسلك الإقناع ويراعي المشاعر، يعرض الرأي الثاقب دون تسفيه للرأي المخالف، ويبسط الحُجج الدامغة من غير حجر لحرية القرار والاختيار. ■

(*) عضو الهيئة المغربية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة / المغرب.

أ.د. بركات محمد مراد*

الزهراوي

رائد علم الجراحة والتشريح

هو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي (٣٢٥-٤٠٤هـ/٩٣٦-١٠١٣م)، من أعلام الطب العربي الإسلامي وأشهر جراحي القرون الوسطى، وأحد الأطباء العرب والمسلمين القلائل الذين عرفتهم أوربا اللاتينية واعتمدتْ على كتبهم في تعلّم الطب وممارسته ما يزيد على خمسة قرون.

وُلد بمدينة الزهراء القريبة من قرطبة ونُسب إليها. عُرف الزهراوي طبيبًا وجرّاحًا، وقد لمع اسمه في أوربا اللاتينية أكثر مما نظر إليه أهل بلده ومعاصروه.

إن الجراحة أصبحت في يد المسلمين علمًا حقيقيًّا وفنًّا له أصول وقواعد، إذ ارتفعوا به فوق مستوى الأدعياء والمشعوذين والجهلة إلى مجالها الطبيعي، لا يمارسها -إلا طبقًا للقانون- غير أطبّاء مؤهلين في الجراحة كثيرًا ما كانوا يمرّون بامتحان يُعقد لهم في البيمارستانات الكبيرة في القاهرة وبغداد.

وبلغت الجراحة في يد المسلمين في القرون الوسطى ذروتها على يد أبي القاسم الزهراوي الذي ألف كتابه "التصريف لمن عجز عن التأليف"، والذي هو في ثلاثين فصلاً، اهتم في بعض فصوله بالجراحة وخاصة فصله الأخير. وقد كانت مهنة الجراحة مهنة مكروهة ممتهنة حتى مقدم أبي القاسم، حيث حلَّ ما جاء في كتابه "التصريف" عن الجراحة محلّ كتابات اليونان، وظل العمدة في هذا الفن في أوربا -كما تخبرنا جميع المراجع- حتى القرن السادس عشر.

ولقد زوّد أبو القاسم مبحثه في الجراحة بصور توضيحية لآلات الجارحة "أكثر من مائتي آلة جراحية" كان لها -بإجماع

الباحثين- الأثر الكبير في الذين أتوا من بعده من الجرّاحين وبخاصة في أوربا في القرن السادس عشر. ذلك أن هذه الآلات قد ساعدت على وضع حجر الأساس للجراحة في أوربا.

والجدير بالذكر، أنه لم يكتف بذكر أكثر من مائتي آلة وببعض الآلات الجراحية الطبية فحسب، بل قد وضع تصميمها بنفسه، وشرح بدقة بالغة كيفية استعمالها شرحًا وافيًا. شرح ذلك كله شرحَ العالِم الممارس والمجرّب الخبير بما يُفسد الجراحات وما يتوقف عليه نجاحها.

ولما ظهر نبوغه في الطب، تولّى التدريس بجامعة قرطبة التي كانت حينئذ من أكبر جامعات العالم الإسلامي، فابتدع أسلوبًا جديدًا في تناول المسائل الطبية وعَرْضها. كان له أثر كبير في تقدّم العلوم الطبية، لذلك قصَد جامعَ قرطبة في زمانه عددٌ كبير من الأساتذة وطلاب العلم الأوربيين، الذين كانوا يَسْعَون إلى التعلّم على يد المسلمين آنذاك. وقد أفادوا من الطب العربي -فضلاً عن هذه الكتب الجامعة التي قاموا بترجمتها إلى لغتهم- مادة غزيرة جدًّا تتعلق بالطب العام والطب السريري أو الإكلينكي، كما تعلّموا علمَ التشخيص المقارن، واستقصاء الدلالات، والتمييز بين الأمراض المتشابهة.

لقد كان الزهراوي أول من وصف وضع الوالدة، وله آلات تستأصل بها أورام الأنف وهي كالسنارة، وله آلات أخرى لاستخراج حصاة المثانة بالشق أو التفتيت... وقد كان الأسلوب الذي ابتدعه الزهراوي في عرض نظريات الطب وأساليبه العويصة، أسلوبًا أدبيًّا جميلاً. فكان له أثر آخر في نفوس طلابه، إذ بعث فيهم بفصاحته في الشرح وقدرته على استخدام اللغة الأدبية في تيسير القواعد العلمية، حبَّ الأدب العربي فأقبلوا على دراسته. وقد كان للزهراوي تلامذة كثيرون، منهم أبو بكر عمر الكرماني، وأبو بكر الخياط، وابن وافد اللخمي، ويوسف بن أحمد بن حسداي.. ويذكر المترجمون له، أنه كان من الزهاد ويمارس الطب بلا أجر.

الزهراوي هو أول من استعمل الفحم في ترويق شراب العسل البسيط، كما أنه أول من استعمل قوالب خاصة لصنع الأقراص الدوائية. وكان يميل إلى التعقيد في تحضير الأدوية وتعدد عناصرها بالرغم من أنه قال بأن الوصفات تحتوي عادة على عدد كبير من العقاقير التي تتشابه في تأثيرها.

مؤلفات في الطب

ألف الزهراوي كتبًا مفيدة في الطب، منها كتاب في أمراض النساء، وكتاب استحضار الأدوية. وقد تُرجم الأخير إلى اللاتينية، وطبع في البندقية عام ١٥٨٩م. ولكنه اشتهر بكتابه في الجراحة الذي يسمى "التصريف لمن عجز عن التأليف". والكتاب يتناول ثلاثين فصلاً، قسمه أقسامًا ثلاثة، فجعل الفصل الأول في الطب الداخلي، والثاني في الأقرابازين والكيمياء، والثالث في الجراحة، وجعله للبحث في عمل اليد والصناعة الجراحية في أحوال الجبر والكسر والخلع والوثي والكي والفصد "Phlebotomy" والجراحات.

وقيمة هذا الكتاب الطبية تتجلى في أنه ظل المرجع الكبير الذي يرجع إليه الأطباء والجراحون في أوربا إلى نهاية القرن السابع عشر. وكان أطباء العرب منذ العصر الجاهلي، يعوّلون على الكي باعتباره علاجًا حاسمًا لكثير من الأدواء وإن كان الطب الحديث الآن ينظر إليه نظرة أخرى إيجابية، من حيث جدواه في علاج كثير من الأمراض التي لم يُعرف لها علاج بالطرق التقليدية، ويُصنف الآن ضمن علاجات الطب البديل، مثل العلاج بالحجامة أو الفصد بالإبر الصينية.

ويلاحظ أن الزهراوي كان من المهتمين بالعلاج بالكي، وقد أبدى هذا الاهتمام في كتابه "التصريف"، فتوسع في الاعتياد عليه، واستخدامه في فتح الخراجات، واستئصال الأورام السرطانية، وكان يفضله في أحيان كثيرة على استعمال المشرط بالرغم من أنه كان من عباقرة الطب الجراحي.

ويدعو الزهراوي إلى ضرورة إلمام الجرّاح بالتشريح ومعرفة كل عضو في جسم الإنسان وتركيبه ووظيفته، إذ لا يتسنى للجرّاح أن يقوم بمهمته إلا إذا ألمّ إلمامًا دقيقًا بتشريح أجزاء الجسم جزءًا جزءًا. وعلى الرغم من أن الزهراوي يَعتبر علمَ التشريح ضروريًّا لتعلّم العمليات الجراحية، إلا أننا نجده يشكو من ندرة العنصر النسوي بين الأطباء. وربما كان هذا هو الذي دفعه على التركيز على الجراحة النسوية بشكل

غيـر اعتيادي بالنسـبة لذلك الزمن. ومـن المفارقات الواقعة، أن هذه الشـكوى ما زالت قائمة في عالم الطب الحديث في الشـرق والغرب على حد سـواء، فالمشـتغلات بالجراحة من النساء أقل بكثير من الرجال.

وقد ترجم "جيرار الكريموني" (١١٨٧م) في القرن الثالث عشـر الميـلادي، الجزء الثلاثين مـن كتـاب "التصريف" إلى اللغة اللاتينية، ومنها نقله "شائيم توب" إلى العبرية.

يتألـف كتـاب "التصريف" مـن ثلاثين فصـلاً أو جزءًا في الطب والصيدلة، ثـلاث منها فقط خصصها للأبحاث الطبية، والمقالات الباقيـة كانت صيدلانية صرفة. فقد تكلم المؤلف في المقالة الأولى عن أغراض الكتاب مـع لمحة موجزة عن محتوياته، ثم تحدث عن الأمور الطبيعية المعروفة، وخصص المقالـة الثانية للـكلام عن الأمراض وطـرق معالجتها. وتعدّ المقالـة الأخيرة "الثلاثون" أشـهر هذه المقـالات، وهي التي اشـتهر بها الزهـراوي جراحًا فـي أوربا بعـد أن ترجمت إلى اللاتينية، لأنها بحث طريف وعلمي في الجراحة.

أما سائر المقالات الأخرى "وعددها ٢٧ مقالة أو فصلاً"، فقـد بحـث الزهراوي فيهـا الأشـكال الصيدلانيـة المعروفة، بالإضافـة إلـى أبواب أخـرى خاصة تتعلـق بمعالجة أمراض معينة كأدوية القلب والباه والسمنة وأمراض النساء، أو تتعلق بقوة الأغذية ومنافعها ومضار ما هو ضار منها.

وفي المقالة الثامنة والعشرين، والتاسعة والعشرين، يبحث الزهـراوي في تحضير العقاقير المعدنيـة والنباتية والحيوانية، وتنقيتهـا وتصفيتهـا، وهي أشـهر مقالـة صيدلانيـة كتبت في لألأندلـس، وقد نقلـت إلى اللغـة اللاتينية بعنـوان "Liber Servitoris"، وطبعـت فـي البندقيـة عـام ١٤٧١م. وأمـا المقالـة التاسـعة والعشـرين، فقد قسـمها المؤلف خمسـة أبواب ذكر فيهـا: تسـمية العقاقير بخمـس لغات هي اليونانية والسـريانية والفارسـية والعربيـة والبربريـة، وأسـماء الأدوات والأجهزة الكيميائيـة والصيدلانيـة، وإبدال الأدوية المفـردة مـع الكلام علـى بعض مصادرها، وأعمار الأدوية المركبة والمفردة "مدة الصلاحية"، وشـرح أسـماء الأكيـال والأوزان مرتّبة بحسـب حروف المعجم.

ومن الطريف أننا نجد كثيرًا من الاكتشـافات والإبداعات الطبية غير المسبوقة في هذا الكتاب.. فالزهراوي هو أول من استعمل الفحم في ترويق شراب العسل البسيط، كما أنه أول من اسـتعمل قوالب خاصـة لصنـع الأقـراص الدوائية. وكان يميـل إلى التعقيد في تحضير الأدوية وتعدد عناصرها بالرغم من أنه قال بأن الوصفات تحتوي عادة عددًا كبيرًا من العقاقير التي تتشـابه في تأثيرها. لذلك فإن نقصان أحد مفرداتها ليس له تأثير سلبي في المجموع. ومن المرجح أن هذه الفكرة قد سـبقه إليهـا "البيروني" في كتابه "الصيدنـة في الطب"، والذي وضـع في مقدمته أسس علم العقاقير الطبية وأسس أخلاقيات الطبيب والصيدلاني.

إنجازات في الطب

أشرنا من قبلُ إلى أنه ابتكر كثيرًا من آلات الجراحة التي كان يسـتخدمها، وكان يعالـج أمراضًـا كثيرة بالكـي، وقد ذكر أنه عالج أكثر من خمسين داء بالكي بالنار. ويرى أنه شاهد حالة نزيف في أسرة، فعالجها بالكي أيضًا. وقد كان الزهراوي أول من أعد إحصائية دقيقة لجميـع أمراض النزف الدموي، وأول مـن اسـتعمل ربط الشـرايين قبـل أن ينتبه إلى ذلـك غيره من الأطباء، وأول من اخترع طريقة استئصال الحصى المثانية في المرأة عن طريق المهبل، وكان أول طبيب مسلم في العصور الوسـطى نجح نجاحًـا باهرًا في عملية شـق القصبة الهوائية، كما قام بعمليات تفتيت الحصى في المثانة.

وتذكر بعض المراجـع الفرنسـية أن أبا القاسـم الزهراوي كان أحـد أركان الثالـوث الطبـي الـذي يتالـف مـن أبقراط، وجالينوس، والزهراوي.

وفي الواقـع، حقق الزهراوي كثيرًا من الإنجازات الطبية؛ فقـد كان رائـدًا فـي كثيـر مـن العمليـات الجراحية، وسـبّاقًا إلـى إنجـازات علميـة وطبيـة باهرة وغيـر مسـبوقة، مما يدل علـى عقليـة فـذة مبتكرة. فهـو أول مـن وصـف داء الناعور "الهيموفيليا"، وأول من رفـع حصاة المثانة عن طريق المهبل، وأول من كتب في تشـوهات الفم وسـقف الحلق، وأول من ربـط الأوعية الدموية بخيوط من الحرير لإيقاف النزف منها، كمـا اسـتعمل الزهراوي شـعر ذيـل الخيول لخياطـة جروح الجلد. وهو كذلك أول من أشـار إلـى الحمل خارج الرحم، وإلى حالة المشـيمة المتقدمة، وشـق جيب المياه الأمنيوسية لتعجيـل ولادة الجنين، وهو -دون شـك- أول من اسـتعمل آلـة حديدية لسـحب الجنيـن إذا تعطلت ولادتـه، أما الملقط

الـولادي الـذي اسـتعمله "جمبـر لن" الإنجليزي فقد جاء بعد أكثر من خمسة قرون من وفاة الزهراوي.

وهـو أيضًـا أول مـن تَحايـل علـى فحـص أعضـاء الحـوض فـي الأبـكار عـن طريـق المقعـد بالإصبـع، كمـا طـور الزهـراوي القنطرة التـي صممها جالينـوس، وجعلهـا منحنيـة من طرف واحد وبيسر. لقد ابتكر الزهراوي عددًا مـن الآلات الجراحية التي اسـتخدمها فـي إجراء هذه العمليـات الرائدة وغير المسبوقة، وصنعها من حديد لا يصدأ، وقـد كانـت تصنـع قبلـه مـن الذهـب والفضـة، وتفتقـد القـدرة علـى القطـع الحاد والسـريع. وقد تحـدث الزهراوي عن هذه الآلات في المقالة الثلاثين من كتابه "التصريف".

كان الزهـراوي رائدًا في كثير من العمليـات الجراحية. فهو أول من وصـف داء الناعور، وأول مـن رفـع حصـاة المثانة عـن طريـق المهبـل، وأول من كتـب في تشـوهات الفم وسقف الحلق، وأول من ربط الأوعيـة الدمويـة بخيوط من الحرير لإيقاف النزف منها.

ومـن هذه الأدوات، آلات مسـتخدمة فـي جراحات الفم والفك والأسـنان والأنف والأذن والحنجرة والحلق، وآلات استخدمها في الجراحات النسائية وجراحات التوليد، وآلات استخدمها في الجراحات العامة والشق والبط، وآلات استخدمها فـي جراحـات العظـام، وأدوات الكـي للجـرح والنتـوءات.

وقـد اسـتعرض الزهـراوي بدقة بالغـة خبراتـه وعملياته الكثيرة خلال خمسـين سـنة من ممارسـته للطب والجراحة، واسـتعرض أيضًـا خبرات من سـبقوه، وسـاق تعريفه للطب بأنـه علـم وعمـل بالأسـباب والدلائـل.. وقدم فـي مقالات كتابه فصولاً وصفية وتشـريحية للعظام والأعصاب والعروق والدماغ، وأعماله الثلاثة في التخيل والفكر والتذكر. ووصف الأذن والأنف والأحشاء وطبقات العين، وسائر أعضاء الجسد من الرأس إلى القدم، فضلاً عن حديثه المسهب والدقيق عن الأدوية وتركيبها والعقاقير واستخداماتها.

فقد درّس علاج تشـوهات الفم والفك باسـتعماله عقافة "صنانيـر" في اسـتئصال العينيـة "البوليـب أو الأورام الليفية" في الأغشـية المخاطية، ونجح في عملية شق القصبة الهوائية "تراكيوتومـي"، وقد أجرى هـذه العملية على خادمـه، وَوُفِّق أيضًـا فـي إيقاف نزيف الدم بربط الشـرايين الكبيرة، محسّـنًا بذلك عملياته الجراحية ومسـهلاً بضـع الأعضـاء. وهو فتح علمـي كبير ادعى تحقيقـه لأول مـرة الجـراح الفرنسـي "أمبـرواز بـاري" (Ambroisise Pare) عام ١٥٥٢م، فـي حيـن أن أبـا القاسـم قـد حققه وعلمه قبل ذلك بـ٦٠٠ سنة.

كما أنـه علم تلامذتـه كيفية تخييط الجـروح بشـكل داخلـي لا يترك شـيئًا مرئيًّا منها، والتدريز المثمن -نسـبة إلى ثمانيـة- فـي جراحـات البطـن، وكيفية التخييـط بإبرتيـن وخيـط واحـد مثبت بهما، واسـتعمل الخيطان المستمدة من أمعاء القطط في جراحات الأمعاء.

وقـد أوصـى الزهـراوي فـي كل العمليـات الجراحيـة فـي النصـف السـفلي من الإنسـان، أن يرفـع الحوض والأرجل قبل كل شيء. وهذه الطريقة اقتبسها الغرب مباشـرة عن الجرّاح العربي المسـلم واستعملها كثيرًا حتـى قرننـا الحالي، فعُرفت باسـم الجـرّاح الألمانـي القدير "فريدريـك ترندلنبـورغ" (Fredericch Trendelenburg). وعـن الزهـراوي أخذنـا طريقـة تـرك فتحـة فـي ربـاط الجبس في الكسـور المفتوحة، ولمد الجراحين وأطباء العيون والأسنان الأوربيين بالآلات اللازمة للعمليات بواسطة الرسوم الجديدة التي صفها.

وكثيـرًا من هـذه الإنجـازات الطبية الفريدة قد اسـتقيناها مـن كتابه الضخم "التصريف"، والذي وردت فيه آراء جديدة وجريئة في الجراحة والصيدلة أبرزها ما يتعلق بكي الجراحات وسـحق الحصـاة في المثانة، ولزوم تشـريح الأجسـام الحية والميتـة. وقد نَقَل هذا الجزء من الكتاب إلى اللاتينية "جيرار الكريمونـي"، وصـدرت منه طبعات مختلفـة منها واحدة في البندقيـة عام ١٤٩٧م، وأخرى في بازل عام ١٥٤١م، وأخرى في أكسـفورد عـام ١٧٧٨م. وظل لهذا الكتـاب مكانة كبيرة، ككتاب مدرسـي للجراحة قرونًا كثيرة في مدرسـتي سـالرنو ومونبيلييه وغيرهما من مدارس الطب المتقدمة. ■

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

أ.د. فؤاد البنا*

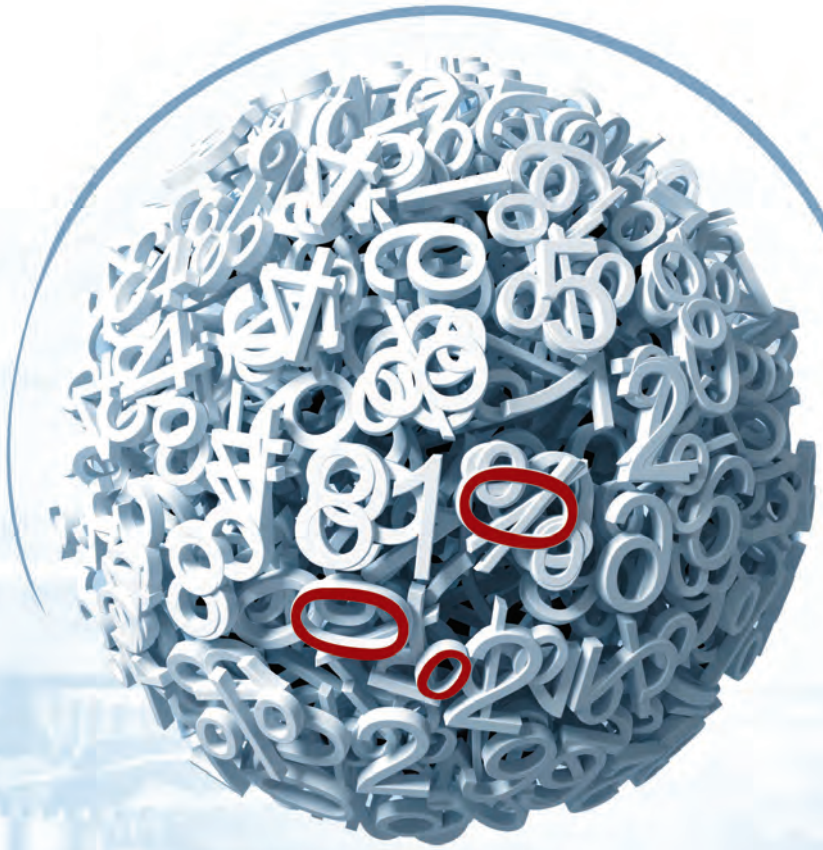

هكذا علمتني الرياضيات

"لولا الرياضيات لما توضحت المناسبات بين البشر ولا بين الأشياء". (فتح الله كولن).

في كتابه الأكثر روعة "ونحن نقيم صرح الروح"، جعل المفكر التركي فتح الله كولن الوصفَ السابع من صفات وارثي الأرض، "الفكر الرياضي"، واعتبر بأن الرياضي ليس العالِم بالأشياء المتعلقة بالرياضيات، ولكنه الذي "يجمع بين الرياضيات وقوانينها فكريًّا".

وفي نظرة أولية إلى مصطلحات الرياضيات وعملياتها الحسابية، وجد كاتب هذه السطور أنه قد تعلم واستلهم منها العديد من الحقائق والنظرات الفكرية التي أحبَّ أن يُشرك قارئه العزيز معه فيها من خلال هذه المقالة. ولكن أرجو التركيز على الكلمات التي بين علامتي التنصيص، فهي مصطلحات ورموز ذات صلة بعلم الرياضيات، حتى نستوعب الظلال الفكرية للرياضيات.

بين "الأصفار" و"الأرقام" الصحيحة

لقد علمتني الرياضيات في هذا السياق:

• أن العرب أهدوا "الصِّفر" إلى العالم، حيث "حلَّ" بواسطته الرياضيون الغربيون الكثير من المشكلات العلمية، وأن العرب بدون الإسلام يصبحون "أصفارًا" على الشمال بدون قيمة، أو تضاف هذه "الأصفار" إلى "أرقام" الآخرين حتى تتضاعف.

• أن العرب أهدوا العالم "الأرقام" المعروفة الآن في الإنجليزية ومنها الصفر عندما كانوا "أرقامًا" صحيحة وأصحاب حضور فاعل. وعندما ابتعدوا عن الإسلام صاروا "أصفارًا" و"أكسارًا عشرية"، وتمحورت طاقاتهم حول الانفعالات، حيث التغني بالماضي والتفاخر على الغرب بأنهم منحوه "الصفر"!

• أن العرب عندما كانوا "أرقامًا" اكتشفوا "الصفر"، وعندما صاروا "أصفارًا" تركوا "الأرقام" وبقوا غثاء كغثاء السيل.

• أن سر ضعف المسلمين أنهم "أعداد" بدون إعداد، وأنهم "أصفار" لا "أرقام".

• أن "المفلس" مَن خاب سعيُه وخسر جهده، حيث حرص على مراكمة "الأرقام" وقطع الأرحام.

• أن ثلاثة رجال عندما "تجتمع أرقامهم" الواحدية يمكن أن يُصبحوا بقوة "١١١" رجلاً.

"العمليات" الفكرية

علمتني الرياضيات في هذا الإطار:

• أن الله "ضرب" على اليهود الذلة والمسكنة، لأنهم "طرحوا" منهجه تعالى أرضًا، وجعلوا غايتهم العظمى "جمع" المال و"قسمته" وفق أهوائهم.

• أن الله هو الذي "قسم" بين الناس معيشتهم في الحياة الدنيا، ويريد أعداؤه أن "يقسموا" رحمته بأمزجتهم، وأعجبُ من هؤلاء صنف من المسلمين وصفهم القرآن بـ"المقتسمين" الذين جعلوا القرآن عضين.

• أن الإسلام هو "الحل"، فهو من يتفوق في "جمع" الأخيار و"ضرب" الأشرار.

• أن "ضرب" الشعوب و"طرح" كرامتها هو الطريق الأسرع لوضع الحكام في "مربع" الاتهام أو القفص "المستطيل".

• أن الـ"قسمة" الضيزى هي جعل العلمانيين الدين لله والدولة لهم.

• أن "استزادة" النعمة تكون بالشكر، و"الاستزادة" من القرآن تكون بالتدبر و"الاستزادة" من الإيمان تكون بالعمل.

وهذا ينقلنا إلى "قوانين" القرآن الرياضية.

"قوانين" القرآن

في هذا المضمار تعلمت من الرياضيات:

• أن الله "يزيد" الذين اهتدوا هدى، و"يزيد" الذين آمنوا إيمانًا، وأن من يقترف حسنة "يزد" له فيها حُسنًا، وأن للذين أحسنوا الحسنى و"زيادة"، وأنه تعالى "يزيد" من يشاء من فضله. وأما الذين في قلوبهم مرض "فزادهم" الله مرضًا. وهكذا فإن الجميع في "ازدياد" بفضل الله وعدله.

• أن ديدن المجرمين دومًا: ﴿اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾(يوسف:٩) أو: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾(طه:٦٤)، ولكن مشيئة الله التي لا تتخلف وسنته التي لا تتبدل قد قالتا: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾(القمر:٤٥).

• أن المؤمنين "يضربون" في سبيل الله لطلب الرزق، وأن الفاسقين "يضربون" تسلطًا أولياء الله، ويوم القيامة "ستَضرب" الملائكة وجوههم وأدبارهم.

• أن "جمع" الفراعنة لكيدهم لم ولن يغني عنهم شيئًا، فالله دائمًا يكسر شوكتهم و"يطرحهم" في النار.

• أن الويل لمن "جمع" المال من الحرام و"طرحه" في خزائن الاكتناز أو "قسمه" على الشهوات المحرمة بدون احتراز.

• أن أسوأ "كسب" هو كسب السيئات، وأفضل "خسارة" هي خسارة الذنوب، وأن الله سيجزي كل نفس بما كسبت.

• أن كل إنسان يستطيع أن "يكتسب" الحسنات أو السيئات في الدنيا، و"سيُقسم" عليه في الآخرة ما اكتسب وما اجترح.

• أن لكل نفس بشرية ما "كسبت" وعليها ما "اكتسبت"، وأن من "يكسب" إثمًا فإنما يكسبه على نفسه.

• أن كل الأنبياء جاؤوا لينذروا الناس يوم "الجمع"، عندما "يُطرح" المجرمون في النار.

• أن الفكر الإسلامي حرَّم "الجمع" بين الأختين في الحياة العامة، وهما المسؤولية العامة والتجارة.

• أن عادة المنافقين دومًا، الخشية من أن تصيبهم "دائرة"، وفي ذات الوقت يتربصون بالمؤمنين "الدوائر"، لكن إرادة الله قضت بأن ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾(التوبة:٩٨).

وهذا ينقلنا إلى هندسة الأفكار وأفكار الهندسة.

"هندسة" الأفكار

في هذه "الدائرة" تعلمت من الرياضيات أمورًا كثيرة، من أهمها:

• أن "المثلث" الذي تتساوى أضلاعه الثلاثة: الفكر، الإنسان، الإمكانات، هو "مثلث" النهوض الحضاري.

• أن بين "الأضلاع" التي في صدري يكمن أَلَدُّ أعدائي،

إن لم أُحسن ترويضه بـ"رياضة" العزم و"حساب" الحزم.

• أن "الحساب" عسير، والناقد بصير، وأنه لا نجاة إلا بـ"هندسة" الأفكار وجبر الأفعال.

• أن "الرسم البياني" لتخلف الأمة يشير بوضوح إلى أن سبب السقوط هو "الجمع" الغائي للمال، و"طرح" الكرامة الإنسانية، و"الضرب" على الحائط بسائر القيم.

• أن النجمة "السداسية" ما ارتفعت إلا عندما "طرح" المسلمون الهلال في "دائرة" النسيان.

• أن "مثلث" الهلاك هو: النفس الأمَّارة بالسوء، والشيطان الموسوس، وأصدقاء السوء.

• أن "دائرة" السوء تدور على السّيّئين، وأن ما ينفع الناس فيمكث في "قاعدة" الأرض.

• أن "الخطّين المتوازيين" لا يجتمعان، وكذلك الحق والباطل.

• أن الـ"مستطيل" على خلق الله مصيره الدخول في "دائرة" العدم.

• أن "هندسة" الفكر و"جبر" الأرواح بزاد التقوى هما جناحا العروج الحضاري.

"طرائق" العروج

علمتني "الرياضيات" في هذا المضمار أمورًا كثيرة منها:

• أن الحضارة تبدأ بـ"طرح" الإنسان "للسالب" من طباعه، و"الاستزادة" في "الموجب" منها، مع الحرص على "تطبيق" كافة معارفه وترجمتها إلى "معادلات" للرقي الحضاري.

• أن الأمة التي تسلك "طرائق" المطالبة بالحقوق، دون الالتفات إلى الواجبات، تبدأ بالهرولة السريعة في "المنحنى" الحضاري إلى أن تصل إلى القاع في "رسم بياني" يشبه تخطيط القلب عند إصابته بالهبوط.

• أن العروج الحضاري بحاجة إلى "قوانين" تتكفل بإيجاد "الأرقام" الصحيحة وفق "متتاليات" فكرية و"نظريات" علمية دقيقة، إلى أن توجد "الزمرة" التي تتحمل أعباء البناء، ويتوفر "الرمز" الذي يجعل الأماني حقائق، وكذا "الجدول" الذي يرتب أولويات البناء حتى يتم الإقلاع المنشود.

• أنه عندما يكبر "المقام" يصغر "البسط"، وعندما تكبر الشعوب يصغر الحكام ويخنس الطغاة.

• أن "المسائل" الحضارية لا "تُحَلّ" إلا بتوازن "بسط" الحكام و"مقام" الشعوب.

• أن تساوي "البسط" و"المقام" ينشئ رقمًا صحيحًا، ومن ثم فإن المجتمع الصحيح والسوي هو الذي "يتساوى" فيه الحكام والمحكومون.

• أن "النظريات" الإسلامية في سائر مجالات الحياة، بحاجة إلى "تطبيق" وإلى "تدريب" حتى يصبح المسلم "برهانًا" على أحقية هذا الدين بالظهور في العالم كله.

• أن الإسلام ليس له "نظير"، ولكن لابد لأبنائه في هذا العصر من الاستفادة من الحضارة الغربية، فإن "الزوجية" قانون كوني.

• أن وسائل "الحل" متعددة، مع أن النتيجة الصحيحة واحدة، ومن ثم فإن الحق واحد و"طرق" الوصول إليه كثيرة.

• أن "نقصان" الأمانة و"زيادة" الفساد هو الوصفة السحرية لتنزل العذاب، والإيذان باضطراب "المقام" وسقوط الأمة في "دائرة" التيه الحضاري، ومن ثمَّ تمكّن العدو من "بسط" نفوذه وسيطرته.

"المسائل" الحضارية

وفي هذا السياق تعلمتُ من الرياضيات:

• أنه لا يتكبر إلا "ناقص"، ولا يتواضع إلا "الرقم" الصحيح، كالغصن المثقل بالثمار.

• أن الإنسان إذا كان يعاني من عقدة "نقص"، فإنه لن يضيف إلى هذه الحياة شيئًا، بل إنه "زائد" عليها.

• أن الإنسان إذا لم "يطرح" الطمع و"يضرب" الجزع ويكتنز القناعة، فإنه لن يغتني أبدًا مهما "جمع".

• أن "الضرب" في الميت حرام.

• أن "الاستقامة" أقصر "طريقة" للوصول إلى حسنتي الدنيا والآخرة.

• أن الحق "خط مستقيم".

• أن الحاكم "متوسط حسابي" للقيم التي تحملها الشعوب، سواء كانت حسنة أو سيئة.

• أن "مقام" العبودية ليس فيه "محايد"، فإن لم يكن المرء "موجبًا"، فسيكون "سالبًا".

معادلة

"طرح" المظالم والسيئات + "قسمة" الحقوق والواجبات + "جمع" القلوب والإمكانات = "قاعدة" الإقلاع الحضاري. ■

(*) أستاذ الفكر الإسلامي السياسي بجامعة تعز / اليمن.

مونية الديغوسي*

بالعلم والعرفان ترقى حياة الإنسان.. يستنير عقله ويشتعل وجدانه ويصبح نافذ النظر. أما أخو الجهالة فهو ميّت وإن مشى على رجْلين.. فالنظر والتأمل والتعلم والتعليم لهي من أعظم غايات خلق الإنسان على هذه الأرض.

(الموازين)

* * *

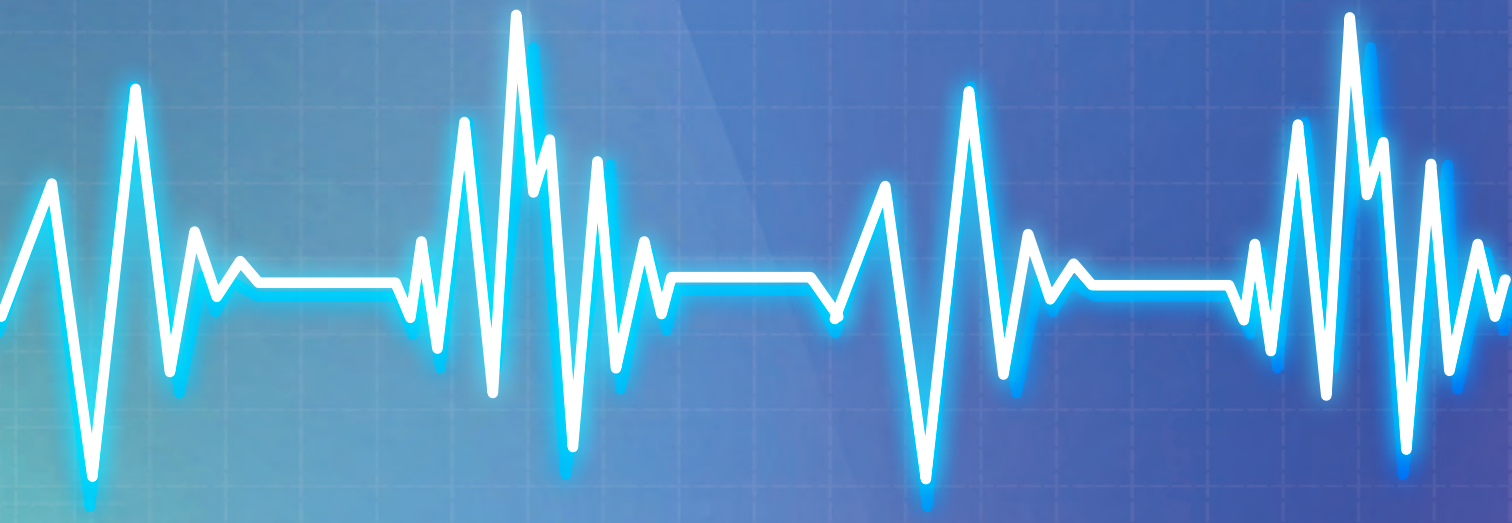

طبيب يبحث عن مرضاه

في كل يوم يتنقّل بين الأقسام يتفقّد مرضاه... فهذا يحتاج إلى كشف طبّي ودواء يُخفف عنه سقمه، وفي الغرفة المجاورة يستلقي آخر ينتظر فكَّ الجبس عن قدمه ليُهرول إلى بيته ويحتضن أبناءه، وفي الطابق الآخر شخص ثالث قد أجرى عملية جراحية هذا الصباح فهو يقف بالقرب من سريره يترقّب حالته ويمسح عنه حبّات العرق التي يلفظها جبينه من حين لآخر.

قد نختلف في الموقع، في الموقف أو الموضع، لكن لا ينبغي أن نختلف في المعنى. فما يجمعنا أكبر؛ إنه التقاء القلوب والعقول في شارع الإسلام والتفافها على موقد الإيمان، بحثًا عن غدٍ أفضل، عن يوم مشرق لهذه الأمة التي لم يبرأ جرحها.

نعم، إنه المعنى، الذي لو انسلخ من المبنى يكون هذا الأخير صنَمًا يُعبد. وهنا يُسمع لمفكّرنا "مالك بن نبي" -رحمه الله- صوت نَفَسٍ عميق يأخذه ويقول: "حين تموت الفكرة يبزغ الصنم". ومن بعيد نلمح الأستاذ "فتح الله كولن" وهو يهزّ رأسه وكأنه يصادق على كلام أخيه "ابن نبي" فيتلفّظ بهذه الكلمات: "إذا غدا حرصكم على مشاريعكم المستوى المطلوب، وأصبحت هذه المشاريع مبانٍ شاهقة تحجزكم عن الحرص على رضى الله تعالى، فإنها قد غدت أصنامًا، عليكم أن تحطموها".

التمكين لدين الله في الأرض لا يُقصد به مجموعة من الأشخاص أو "الأبطال"، بل هو نسيج جماعي يضم عقولاً وقلوبًا متعانقة. إنه استعداد للعمل في شكل جماعي ضمن فريق يؤمن كل واحد فيه بأن لديه دورًا يؤديه.

المعيار في القيادة

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾(النحل:١٢٠)، لقد انطبق هذا الوصف على سيدنا إبراهيم عليه السلام ولم يتحلَّ به الملايين من الناس، إنها خصائص حملها إنسان فكان بحقٍّ أمة. فالتمكين لدين الله في الأرض لا يُقصد به مجموعة من الأشخاص أو "الأبطال"، بل هو نسيج جماعي يضم عقولاً وقلوبًا متعانقة. إنه استعداد للعمل في شكل جماعي ضمن فريق يؤمن كل واحد فيه بأن لديه دورًا يؤديه؛ أن يحمل مع أخيه العبء، أو يحمل عنه، وإن لم يكن المسلم على تلك الحالة وكان العمل بتلك الروح، فسيفنى المجموع كلّه. وفي هذا المضمار يقول الأستاذ مالك بن نبي: "من لعنة الزمن بأن الإنسان المُقصي يبني، وبذور في تضاعيف بنائه تهدمه".

إذن ليس الإنسان مجموعة من التفاعلات النفسية المجتزئة عن السياق الاجتماعي، وإذا سلّمنا بذلك نكون قد خالفنا رؤيتنا الكونية الإسلامية. ففي صلاة الجماعة -مثلاً- يقف المسلمون صفًّا واحدًا خمس مرات في اليوم، إن ذلك يحقق الكثير من المعاني السامية؛ كالدقة في الزمن، انتظام الصف، الانقياد للمعنى، الانضباط في كل جماعي... إنهم ينتظمون في صف واحد وينقاد المأموم للإمام، لكن يا ترى كيف يُنقض هذا الغزْل المُحكمة خيوطه بمجرّد الخروج من صف الصلاة؟ فلا أثر لانتظام وانضباط في صفوف الحضارة والتشييد؟ إننا ببساطة نغفل عن تلك المعاني، وأنه لِتَتحرّك الصلاة وتكون محورًا ديناميكيًّا للحضارة، وجب أن نفهمها فهمًا حضاريًّا إضافة للانضباط الفقهي. إنه الفهم الشمولي، والرؤية المتكاملة التي وُلد بها الإسلام؛ هذه الورشة الكبيرة التي يَنشط فيها كل الناس حسب استطاعتهم، وفق مخطط واحد، ذلك أن الانتظام الجماعي هو ما سيلد الحضارة.

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾

لقد قدّم رسولنا الكريم ﷺ النموذج المتكامل، وإن لم ينشرح صدر بعضهم للإسلام فلا غبار يكسو صفحات سيرته ومسيرته المباركة. فهذا أعرابي يلقى رسول الله ﷺ فيُسْلم مباشرة؛ لقد تلاشت الصورة التي نُقلت له عن هذا النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، إنه ينظر ويحدّق في الأصل، في النموذج الذي أَسَّس له خاتم النبيين ﷺ.

إنها الحاجة الملحّة لتقديم النموذج، والله ﷻ يقول: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾(التوبة:١٠٥)، ففي سياق بناء النموذج المتكامل دور الإنسان أن يعمل ويحترق وأن ينطلق في المعالي، أن لا يدّخر "جهدًا، مالاً، علمًا، عملاً...". وينبغي التذكير هنا بضرورة أن تُفهم الآية في سياقها؛ فـ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾ لا تعني أيَّ عمل، لكن لنتمعّن النظر ولننصت جيدًا لقوله تعالى ونحن نُتمّ الآية الكريمة: ﴿فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

دهان الاستحالة ودهان السيولة

قد يأتي شخص بفكرة عميقة فيُفرِغ فيها شخص آخر دهان السهولة ويقول: "إنها فكرة سهلة"، تموت حينئذ الفكرة ويُقتل الأمل الذي أُبصِرتَ نورَه من بعيد. من جهة أخرى هناك أفكار كثيرًا ما تتلوّن بصبغة الاستحالة المطلقة، فأنى لصاحبها أن يصل أو يحلم بالوصول لتحقيق المستحيل؟

الحقيقة غير ذلك؛ فكل شيء ممكن الحدوث إذا ما فقهنا السنن الكونية، الظروف الزمانية والمكانية، الوعاء الذي

نتحـرك فيـه... إنه اجتهادُ وجهادُ الإنسـان ليجمـع بين رؤية النسـر ودبيب النملة التي تتعثر في حبات الرمل التي تصادفها فـي الطريـق. ذلك بالتأكيد لن يتحقـق إلا بالصبر، والله تعالى في خلقه للسماوات السبع في ستة أيام، يعلّمنا أن هذا الكون منضبـط بالزمـن، وأن لكل أمْرٍ مـدة زمنية ضرورية ليسـتوي ويحقق النضج.

ولنا في قصة سـيدنا يعقوب عليه السلام الأسوة الحسنة، إذ نجد هذا النبي الضرير الفاقد لابنيه "يوسف ثم بنيامين"، والمتشبّع بـروح الصبـر الإيجابي يُعلّمنا: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُـوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾(يوسف:٨٧). إنه باب الأمل، يلِجه الإنسان وهو آخذ بالاعتبار لأسباب الكون.

الإنسان الجديد

كيـف يمكـن للقلـوب أن تحيـا هـذه الكلمـات التـي لطالما رددناها صغارًا: "النظافة من الإيمان، والوسـخ من الشيطان"، ثم يعيش هذا الإنسان لحظات أُنسٍ وطمأنينة و"الوسخ" يدق كل حينٍ باب بيته، وباب شارعه، وباب وطنه وأمّته؟

إننا إنْ تعوّدنا أن نمد يدنا للآخر لنحصل على لقمة العيش، لنطلب البرء في مشافيه، لنلتهم مختلف المعلبات التي أحسن ترتيبها وعرْضها لنا على أرفف حضارته المزعومة... فدعوتنا له باسم الإسلام بعد ذلك، لن تجعله يحرّك ساكنًا، لن تدفـع بـه ليحتضـن هـذا الديـن العظيم، إننا ببسـاطة ندعـوه ليكون مريضًا.

لذلك، فالهدف أن يصوغ الإنسـان المسلم اليوم سمفونية متكاملة النغمات، سـيجد حينئذ بالضرورة آذانًا تصغي إليها. إنه يحـرص تمام الحرص لتكتمل هذه النوطة الحضارية، أما إن لم يُعمل عقله وقلبه وجهده من أجل تناسقها، وطلب من الآخرين الاسـتماع إليها، فإنه سرعان ما سيلحظ تفرّق الناس من حوله منشغلٌ كلٌّ بأموره.

إذن، هنـاك إنسـان لم يتشـكّل بعد، متـوازن، متكامل، لا يعيـش تناقضات بيـن ما يقرأ فـي القرآن الكريـم وما احتوته السـنة الشـريفة، وبين ما يجـده في واقعه. إنـه طبيب للمعنى والـروح سـائح في كون الله تعالـى، أينما حـلّ أو انتقل فنُور الحق يبزغ بداخله.

في مطار الانطلاق

"إن المدرسـة بقـدر مـا تكـون متوجهة نحو الهدف ومتّسـمة بالعمـق، تصبـح مينـاء أو مطـارًا أو منطلقًا للأمة، بشـرط أن تُصْهَر مكتسباتها في بوتقة ثقافتنا الذاتية".

أجـل، إنها العودة إلى الذات، إلـى المعايير الذاتية للأمة، المعاييـر غيـر المسـتوردة، إلـى الإيمـان. فالإنسـان صاحب الهـمّ الحضاري، يحمـل ذلك الوزن الزائـد/ الضروري على مـرّ الزمـن. إنهـا عودة تقتضـي القيـام بعملية غربلـة "فكرية، إيمانيـة، وجدانيـة"... فالمعلّم في قسـمه ليس ملقّنًـا للتلميذ لمعلومات، وإلا ما كان معلّمًا بل معلّبًا، لكن المخطط الأهم والاسـتراتيجي لديـه هو بنـاء هذا الإنسـان... وحيـن تنطلق المدرسة بهذا الحراك، ستغدو حتمًا مطارًا لإقلاع الأمة.

المدرسة

إذا أردنا أن نبصر حاضر ومستقبل أمة ما فلننظر إلى تعليمها. وهـذا الصرح الحضـاري (المدرسـة) في الحقيقـة ما هو إلا مشتلة، والتلميذ فيه فسيلة طيبة.

إن الحاجـة اليـوم ليسـت لمعلِّـم وظيفي يراقـب عقارب سـاعته كل حين ليسـتعجل مغادرة قاعة الدرس، بل هو نداءٌ للنجدة ينطلق من بعيد بحثًا عن أفئدة تلتهب شوقًا، وانصهارٌ جماعـي في المعنـى وللمعنى... إنه القلب يهفـو إلى أولئك الأطبـاء المرابطين في مستشـفى الحياة؛ الذيـن يجمعون بين العقل والقلب، الفكر والفعل... إنه إنسـان صابر على تجنين الزمـن، ذهنه مُركّزٌ على الحقل، ويتحرك بثقة كبيرة في خالقه وباتخاذه لأسباب النصر والتمكين.

نعـم، فبمنهـج النبـي ﷺ "التسـديد والمقاربـة"، يتحـرّك هـذا الأميـن على مسـتودع الحضـارة، يعمل ويفكّـر، ويفكّر وهو يعمل، مدركٌ تمام الإدراك أن المدرسـة ليسـت هي آلة التغيير، بل هي الحقل الخصب لذلك، وأن مهمته هي السقي والرعايـة والتعهـد، فلا يـزال يضرب في تلـك الأرض حتى يُخرج خيراتها بإذن الله. ■

(*) باحثة وصحفية / الجزائر.

المراجع

(١) ونحـن نبنـي حضارتنا، للأسـتاذ فتح الله كولن. ترجمـة: عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل للطباعة والتوزيع، القاهرة.

د. محمد باباعمي*

تحرَّ لعلمك غاية وهدفًا، وإياك والإغراقَ في الفرضيات والوهميات التي تزيد الأرواحَ ظلمة والعقول تضليلاً.. احذر مصائد الأرواح هذه، وتجنّب ما تنصبه للعقول من أفخاخ.

* * *

(الموازين)

الاختبار العسير

كلَّما حدث أمرٌ حقير أو عظيم في أيِّ زمان من الأزمنة وفي أي مكان من الأمكنة، كان اختبارًا وامتحانًا لمن قامت عليه الحجة في ذلك الأمر. لا شيء في الدنيا يقع اعتباطًا أو سَبَهْلَلاً أو بغير حكمة، ولا شيء بتاتًا يندُّ عن إرادة الله وعلمه ومشيئته سبحانه.

فما وقع -ويقع هذه الأيام- من حملة لتشويه صورة أعظم الخلق محمد عليه الصلاة والسلام بكل الأشكال والألوان وبجميع الوسائل والإمكانات، تسندها تخطيطات واستراتيجيات. كل هذا ليس عبثًا ولا هو

خارج قدر الله الحكيم العليم سبحانه.

وما كان أبو لهب، وأبو جهل، ومسيلمة، وأبيٌّ، وغيرهم من الكفار والمنافقين والمعاندين... ما كانوا عبثًا في مسيرة الرسالة المحمدية المباركة؛ وجودهم حكمة ليبتلي الله إيمان المؤمنين وعمل العاملين: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا﴾(البقرة:٢١٤).

وإني لأجد هذه الحملة وغيرَها، اختبارًا عسيرًا لكلِّ الناس ولكلِّ الأطياف ولكل المؤسَّسات، ولكلِّ الأمصار ولكلِّ التوجهات ولكلِّ الاتجاهات بلا استثناء. وأوَّل من يتعرَّض للاختبار هو "أنا"، بها أبدأ، ومنها أنطلق، وعنها أسأل، وإياها أحمِّل الواجب؛ فهل يمكن أن أتركها خارج دائرة الأمر الرباني، والحكم الإلهي، والواجب الشرعي؟!

ليس مقبولاً أن تمرَّ علينا الإهانات لمقدَّساتنا وعقائدنا وديننا وإسلامنا ثم لا يتغير شيء في حياتنا وفي تصوراتنا وفي مواقفنا وفي أفعالنا وفي اختياراتنا.. ولذا نسأل، مَن منَّا يحمل قلبًا مفعمًا بالإيمان بالله واليوم الآخر، ويقف حياته ومهجته للدفاع عن إيمانه ونصرة دينه بموجب "التدافع"؟

يا نفسُ، ما مدى حبكِ لرسول الله عليه الصلاة والسلام؟ أهو حبٌّ فُلْكلُوري مناسباتيٌّ آني عابر؟ أم هو حبٌّ إيمانيٌّ رساليٌّ دائم؟ ثم ماذا فعلتِ وتفعلين في حقه عليه أفضل الصلاة والتسليم؟ هل كنتِ في مستوى عصركِ، وهل أعددتِ العدَّة الكافية لنصرته، وهل جهَّزتِ الأسباب والمقدِّمات للانتصار له؟ أم أنكِ في دوَّامتكِ تعمهين، وعن التخطيط تُعرضين، وللظروف تَستجيبين؛ ثم ما تلبثين أن تدخلي دوامة الحياة، وتدورين في دائرة مفرغة إلى حين؟

علميًّا، ماذا أعددتِ؟ تربويًّا، ماذا أعددتِ؟ إعلاميًّا، ماذا أعددتِ؟ اقتصاديًّا، سياسيًّا، فنيًّا... وهكذا في كلِّ مناحي الحياة أسأل نفسي، وكلُّ عاقل يسائل نفسه: "ماذا عملتِ فيما علمتِ؟"، ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(النحل:٩٣)، ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾(الصافات:٢٤).

إنه اختبار عسير للعلماء اليوم، وللتجمُّعات العلمية العالمية، ولهيئات الفتوى، ولوزارات الشؤون الدينية... تُرى هل تصوغ المخططات وتجيب على الإهانة بما يليق؟ أم أنها تبقى مثل الأطفال على شاطئ الإرادة والعصر، تاركة المبادرة للسياسة أو للشارع، مبررة لهذا أو لذاك، ناقلة لأدلة في أغلب الأحيان مبتورة، مجتزئة كما رأينا هذه المرَّة من بعض مجامعنا الفقهية المحترمة؟ للأسف.

ثم، هو اختبار عسير للمدارس، وللمناهج التربوية، وللمقررات، ولوزارات التربية، بل لكل معلّم ومدير ووليّ وتلميذ... فهل هي تسير على وقع رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ وهل تخِذته أسوة وقدوة، ومارست التربية بناء على معياره هو؟ أم أنها تغنّي خارج السِّرب، وتصفِّق لـ"ديوي" و"روسو" وغيرهما في عرس المدنية السمج؟

هو اختبار لمؤسَّسات الإعلام؛ هل أهمَّها أمرُ قرآنها ورسولها، وهل يهمُّها أمر دينها كما أمر الله؟ أم أنَّ مشادات كرة القَدَم، والانتخابات الحامية الوطيس، وفضائح الناس...

كلُّ أولئك أَوْلى في أجندتها من الانتساب إلى خيرِ البرية ورسولِ البشرية محمدٍ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم؟

ثم هو امتحان للمال ولصاحب المال؛ أمِن الحرام هو أم من الحلال؟ وهل يُنفق فيما لا يعني، سرفًا وسفاهة؟ أم أنه ينفق ليبني واقعًا جديدًا، ويؤسِّس عهدًا جديدًا تكون فيه الأمَّة متمكنة متحضِّرة متفوّقة في جميع المجالات، ويكون فيه المال وقود هذه النقلة التاريخية الإيمانية المنشودة؟

هو امتحان، لا يخوضه واعيًا اليوم للأسف، إلا الإنسانُ البسيط، وهو يحترق وينطلق، وقد يخطئ أو يتهوَّر، لكنه على الأقل يملك قلبًا مفعَما بالحبِّ، وفؤادًا خالصًا مرهفًا. أمَّا الكثيرون ممن يشار إليهم بالبنان، فقد باتوا أرباب مصالح وأصحاب حسابات، لا يؤمَّل فيهم الكثير ولا يرجى من بابهم الخير.

هو اختبار، وهو امتحان إذن... والإجابة لا تكون في يومٍ أو يومين، وإنما هي طوال الحياة ودائمًا ما دام ثمة إنسان. ونتيجة الاختبار لن تعلَّق إلا يوم الحساب، فلينظر كلُّ مؤمِن كيف ينجِّي نفسه يوم الفرقان، ويوم التغابن، ويوم يلقى ربه، سبحانه وهو القائل: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(غافر:١٧).

رحم الله العلامة بديع الزمان سعيد النورسي، ففي حوالي سنة ١٣١٦هـ/١٨٩٩م، حدث له انقلاب كليٌّ في حياته؛ إذ علم من الوالي "طاهر باشا" أنَّ أوروبا تحيك مؤامرة خبيثة حول القرآن الكريم، ثم سمع أنَّ وزير المستعمرات البريطانبي "غلادسون"، صرَّح في مجلس العموم البريطاني وهو يخاطب النواب قائلاً: "ما دام هذا القرآن بيد المسلمين، فلن نحكمهم حكمًا حقيقيًّا، فلنسع إلى نزعه منهم". ولقد زلزل هذا الخبر كيان النورسي، وأقضَّ مضجعه، فأعلن لمن حوله:

"لأبرهنَنَّ للعالم بأنَّ القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها، ولا يمكن إطفاء نورها"، ثم حبس عمره كلَّه للخدمة الإيمانية والقرآنية، ولاقى في ذلك ما لاقى من معاناة، ولكنه خرج منتصرًا مظفرًا، راضيًا مرضيًّا بحول الله.

واليومَ، ليس مقبولاً أن تمرَّ علينا الإهانات لمقدَّساتنا وعقائدنا وديننا وإسلامنا ثم لا يتغير شيء في حياتنا وفي تصوراتنا وفي مواقفنا وفي أفعالنا وفي اختياراتنا... ولذا نسأل، مَن منَّا يحمل قلبًا مفعمًا بالإيمان بالله واليوم الآخر، وبكتاب الله الحكيم ورسوله الكريم، يقف حياته ومهجته للدفاع عن إيمانه ونصرة دينه بموجب "التدافع"، وقد قال جلَّ من قائل: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾(البقرة:٢٥١).

فهلاَّ كنا جادِّين في تحمُّلنا لأسئلة الاختبار العسير، وهلاَّ احترقنا شوقًا وهمًّا وهمَّة، وانطلقنا علمًا وعملاً وتخطيطًا... فإن فعلنا كان الله معنا، وكان رسولنا وحبيبنا شفيعًا لنا يوم اللقاء، وإلا كان خصمًا وخصيمًا لنا والعياذ بالله.

ولا يزال حديث الحوض يقرع آذاننا ويهدُّ قلوبنا ويزلزلنا زلزالاً شديدًا، وقد ورد فيه:

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه أتى إلى المقبرة فسلم على أهل المقبرة فقال: "سلامٌ عليكم دارَ قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون"، ثم قال: "وَدِدتُ أنَّا قدْ رأينا إخوانَنا". قال: فقالوا: أَوَلسنا إخوانَك يا رسول الله؟! قال: "أنتم أصحابي، وإخوانُنا الذين لم يأتوا بعدُ"، فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعدُ من أمَّتك يا رسول الله؟ قال: "أَرَأيتَ لو أن رجُلاً كان له خيلٌ غُرٌّ مُحَجَّلةٌ بين ظَهْرَيْ خيلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ ألا يعرفُ خيلَهُ؟"، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: "فإنهم يأتون غُرًّا مُحَجَّلين من الوُضُوء، أنا فَرَطُهُم على الحَوْض"، ثم قال: "ألا ليُذادَنَّ رجالٌ عن حَوْضي كما يُذادُ البَعير الضالُّ، أُنادِيهم: ألا هلُمَّ فيُقال: إنهم قد بَدَّلوا بعدكَ، فأقول: سُحْقًا سُحْقًا" (رواه مسلم).

فهل يا ترى نأتي رسولَنا الحبيب غُرًّا مُحَجَّلين، أم أننا نأتيه -ونعوذ بالله من ذلك- ثم نذاد مثل "البعير الضال"، ثم يقول لنا "سحقًا سحقًا".

هذا هو الاختبار العسير!

أمَّا نبيّنا وقرَّة أعيننا، فيكفيه أنَّه وُعد من ربّه وعدًا حقًّا؛ أنه سيعلي من شأنه وقدره وسيجعل أعداءه عبرة لكلّ معتبر، فقال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾(الكوثر:٣)، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾(الأحزاب:٥٧). ■

(*) مدير معهد المناهج، الجزائر العاصمة / الجزائر.

شعر

د. ناصر الزهراني*

أعذب الألفاظ

"اللــه" يا أعذب الألفــاظ في لغتي ... ويــا أجــلّ حــروف فــي معانيهــا
"الله" يا أمتع الأســماء كم سعدتْ ... نفســي وفاض ســروري حين أرويها
"اللــه" أُنسِــي وبســتاني وقافيتــي ... "اللــه" يــا زينــة الدنيــا ومــا فيها
تهيــم نفســي إذا أبصرتهــا وإذا ... ســمعتها وإذا مــا كنــت أُمليهــا
أُحــسُّ فيهــا إجاباتــي وأســئلتي ... ومــن معاني الرضــا والحب صافيها
هي الهــوى والمنى والأنس ليس لها ... في الكــون نــدٌّ وبــالأرواح نفديها
"اللــه" حبي وإســعادي ومــا فتئت ... روحي مدى العمر في شــوق تغنيها
"الله" إن ضاقــت الدنيا بما رحُبت ... عليك فالجــأ لها واســكن مراميها
"اللــه" يا عطر هذا الكــون يا مددا ... يفيــض لطفًــا وإحســانًا وتنزيهــا
"اللــه" تهتــز أرواحٌ لهيبتهــا ... "اللــه" تشــتاق ألبــابٌ لحاديهــا
"اللــه" "اللــه" كــم "لله" مــن أثر ... فــي مهجتــي أي أوزان ســتبديها
"الله" أجمل ما في الكون أحسن ما ... يــروي ضمائرنــا طهــرًا ويســقيها
"اللــه" يا أحرف الإجــلال ليس لها ... من أحــرف فــي مزاياها تســاميها
اســم تســمّى به الباري فــكان كما ... أراد يعبــق إجــلالاً وتأليهــا

(*) عالم ومفكر سعودي، ومؤسس مشروع السلام عليك أيها النبي.

د. عبد الحميد عشاق*

التربية على
قيم النقد والتقويم

يتحرك المسلم في بيداء الحياة ودروبها على هدى وبصيرة، ولا هدى ولا بصيرة دون تحديد الوجهة وتبين الهدف المراد. وإن المقصد الأسنى والغاية العالية للإنسان المسلم هي الفوز برضا الله تعالى. ولذلك فإن كل الأهداف والغايات والبرامج والوسائل، ينبغي أن يكون تابعًا للأول وخادمًا له ومؤديًا إليه... وإن أساس كل خير وثقافة وسلوك هو الإيمان بالحق والتمسك به والثبات عليه.

إن سعادة الإنسان ومستقبله لن يتوقف على مزيد من الكشوفات المخبرية والتقنية وتكنولوجيا المعلومات، ولكنه سيكون منوطًا بمدى إيمان المرء بمبادئ صحيحة وقيم عليا، وتأثير هذا الإيمان في ترشيد سلوكه وتعديل مواقفه واتجاهاته في الحياة.

وما لم يعِ المجتمع أهمية هذه القيم العليا وجعلها أكثر نقاء ووضوحًا وفعالية، فلن يتمكن من إقناع الأجيال الصاعدة بها، والثقة فيها، واعتبارها جزءًا من هويتها وتراثها. والطريق الأقوم إلى ذلك باختصار، هو المجاهدة والتضحية من جهة كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(العنكبوت:٦٩)، والاحتراز من أشكال التناقض بين القول والفعل من جهة أخرى، على نحو قوله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾(الصف:٢-٣). ستظل أرواحنا فارغة، وذواتنا ممزقة، وأعمالنا متناقضة ومتضاربة، ما لم نوحّدها عن طريق الإيمان، وما لم يتحول إيماننا إلى طاقة قادرة على تخليصنا من أهواء أنفسنا وسيئات أعمالنا.

ومن المقاصد الكبرى للإنسان المسلم، معانقة الحق ونصرته والدفاع عنه. فبالحق نزلت الرسالات، وبالحق قامت السماوات والأرض، وباتباع نقيضه "الهوى" فسد الإنسان وفسد العالم: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾(المؤمنون:٧١)، وإن هذا الحق ثقيل مريء، وإن الباطل خفيف وبيء. ولذلك أخبر الباري جل وعلا، أن أكثر الناس لا يحبون الحق ويستثقلونه فقال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾(المؤمنون:٧٠).

والدفع والتدافع بين الحق والباطل ماضٍ إلى يوم القيامة، ومن دأب المسلم وديدنه أن يدور مع الحق حيث دار، لأن البديل عن نصرة الحق والتمكين له، هو نصرة الباطل والترويج له.

إن قيمنا الثقافية والإعلامية السائدة، وتربيتنا في بيوتنا ومدارسنا، وعلاقات الشيوخ بطلبتهم والأساتذة بتلاميذهم، تتوارد في الغالب على ثقافة الصمت، وتعمل بخلاف المبدأ العمري الحكيم "قل يا ابن أخي ولا تَحقرنّ نفسَك"

إن التربية على قيم الحق معناها، أن نربي أنفسنا وناشئتنا والأجيال على قبول الحق وتعظيمه والانفعال به، ذلكم هو الخطوة الأولى على طريق صياغة مفردات الحياة ومواضعاتها وجوانبها على أساسه وترسيخ قيمه. وإن الإذعان للحق والفرح به، شأن من شؤون النفوس الكبيرة التي تربأ عن الأهواء والأنانيات والحسابات الضيقة، وشأن الحكماء وأولي النهى الذين قال الله في أمثالهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ۞ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾(المائدة:٨٢-٨٣).

والتربية على تحمل المسؤولية عن التصرفات التي يقوم بها الطفل، نوع من الاستمساك بالحق وتعزيزه وإقامته. وهذا الخُلُق ينمو لدى الطفل حين يسمع الثناء على ما قام به من خير، وحين ينبه بلطف على ما بدر منه من خطأ. كما يتعزز حين يرى الطفلُ الكبارَ يعترفون بأخطائهم ويتحملون المسؤولية عنها بطيب نفس. وقد نوّه سبحانه -في هذا السياق- بشجاعة امرأة العزيز حين اعترفت بمراودتها يوسف عليه السلام عن نفسه إذ قالت: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۞ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾(يوسف:٥١-٥٢).

إن تحمل المسؤولية عن الخطأ، سلوك تربوي رفيع منبثق عن عقيدة عالية في التزام الحق والتمسك به. وقد بلغ هذا السلوك عند صحابة رسول الله ﷺ مَبْلغًا عظيمًا يندُرُ وجوده في اجتماع البشر... فقد جاءت الغامدية وقالت: يا رسول الله إني زنَيْتُ فطهّرني، فردّها، ثم جاءته، وطلبتْ منه أن يرجمها، وقالت يا رسول الله إني حُبلى، فأمرها أن تذهب حتى تلد، ثم جاءت بعد ولادتها بطفلها وقالتْ ها قد ولدته يا رسول الله، قال "اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه"، فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز، فطلبتْ أن يرجمها ففعل عليه

الصلاة والسلام. وهذا الخبر غني عن كل تعليق.

إن قيمنا الثقافية والإعلامية السائدة، وتربيتنا في بيوتنا ومدارسنا، وعلاقات الشيوخ بطلبتهم والأساتذة بتلاميذهم، تتوارد في الغالب على ثقافة الصمت، وتعمل بخلاف المبدأ العمري الحكيم "قل يا ابن أخي ولا تَحقرنّ نفسَك"؛ فالكبير يُسكت الصغير، والزوج يُسكت الزوجة، والصبي يُسكت البنت، والمعلم يُسكت التلميذ، والمدير يُسكت المدرس وهلمّ جرًّا... وما زالت قيمنا تغري بتأجيل المشكلات بدل مواجهتها، والأخذ بالحلول التلفيقية، والاشتغال بالأعراض والنتائج بدل الأسباب والمقدمات... وما زلنا نظن أن غياب رأي معارض أو ناقد أو مستدرك هو علامة صحة وعافية وكمال، مع أن تلك الحالة أشبه بالجسم الذي يفتك به المرض ويتغلغل في أطرافه دون أن يصدر عنه إنذار من ألم أو حمى. وهذه العقلية جعلتْ منّا أمة نموذجية في إخفاء الحقائق، والخوف من الوضوح، والهروب من مواجهة المشكلات، والتنصل من المسؤولية، والبروز بالمظهر اللبق... فصار للمرء وجهان، الظاهر منهما خير من المستور، مع أن الأصل أن يكون باطن المرء خير من ظاهره. وفي الحديث الصحيح: "تجد مِنْ شرّ الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهَيْن الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه"، وروي بلفظ: "لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون أمينًا"، وفي سنن أبي داود: "من كان له وجهان في الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار". وتجد كثيرًا من الناس لا يملك الشجاعة للاعتراف بخطإٍ ارتكبه مع صديقه أو زوجته أو ابنه، وتجد كثيرًا من المدرسين لا يجرؤ على القول: ذكرتُ لكم في الدرس الماضي كذا وكذا وهو خطأ والصواب كذا وكذا.

وحين ترى الناشئة أن كل ما حولها تام وكامل ومعصوم، فكيف تصير هي ناقصة؟! إن هذه الثقافة الدعائية، مدعاة لهم للدفاع عن النفس والمجادلة عنها بحق وبغير حق، لأن السراة والكبار كذلك يصنعون. وهكذا يضيع الحق في متاهة الأهواء والدعاوى والتزييف، وتتصاعد الانتصارات المجازية والصورية العريضة التي لا حظ لها من الواقع.

إن سعادة الإنسان ومستقبله لن يتوقف على مزيد من الكشوفات المخبرية والتقنية وتكنولوجيا المعلومات، ولكنه سيكون منوطًا بمدى إيمان المرء بمبادئ صحيحة وقيم عليا، وتأثير هذا الإيمان في ترشيد سلوكه وتعديل مواقفه واتجاهاته في الحياة.

إن حقًّا على المؤسسات التربوية والتثقيفية أن تنهج أسلوبًا جديدًا في التربية والتثقيف والتواصل، قائمًا على الحوار والمصارحة والمناقدة والمناقشة.

وإن من يُمن طالِع المربين والمثقفين أن يكون بين ظهرانيهم من يعترض عليهم ويناقشهم ويسألهم ويصحح لهم ويستدرك عليهم، فذلكم هو السبيل الحقيقي للارتقاء بالسقف المعرفي للمجتمع، والوعي الثقافي العام لمختلف مرافقه وطبقاته ومؤسساته.

وإن مما أطال في عمر المدنية الغربية الغالبة اليوم -على ما يكتنف مسيرتها من أخطاء- اعتمادَ أسلوب النقد والتقويم والمراجعة، وإعمال مبدأ الرقابة المتبادلة الذي يتيح لكل فرد في المجتمع آليات شتى لمراقبة غيره ومحاسبته، خصوصًا إذا تعلق الأمر بالشأن العام والمصالح الضرورية للأمة.

وبالمقابل، فإن أخطر العلل التي أنهكت الحضارة الإسلامية وأضعفتها، وطوحت بها من أعلى إلى تحت، ومن الريادة إلى التبعية، ومن الفعالية إلى الركود... شيوع ثقافة الصمت، والتسليم المطلق، والانسحاب الجماعي من فروض الكفاية، واستبداد الفرد بالشأن العام والاستئثار به، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، وقمع أصوات النقد والاستدراك، والخوف من المصارحة الذي حل محل منهج "قل يا ابن أخي ولا تحقرن نفسك"، وضمور روح المؤسسات المنتظمة لقيم الحق ومبادئه، وحسبة الأمر بالقسط، والرقابة المتبادلة، وإدارة الاختلاف وتدبيره بما يحقق المصالح المنشودة للأمة بصورة سلمية وهادئة. ■

(*) عضو المجلس الأكاديمي للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

أديب إبراهيم الدباغ*

الروح المغامر

يعود الفضل في إنجاز الأعمال الكبرى التي شكلتْ منعطفات حادّة في مسيرة الحضارة الإنسانية، إلى المغامرين من ذوي الأرواح الاندفاعية العظيمة، الذين يرون في المغامرة انفلاتًا من حبوس الجمود على العاديات والمكرورات في حياتهم المعيشية اليومية. فالرغبة من الانفلات من القيود هي من طبيعة الروح، فهي تتضايق وتَمَلُّ من المكوث الطويل في حال واحدة، فتسعى دومًا للمضي نحو الأبعد، والارتقاء نحو الأعلى والإيغال في المبهم والغامض والمجهول، بينما يظلُّ "العقل" دون تطلعات "الروح" محكومًا بتوجّساته وحساباته وتردّداته، فيقدّم رِجْلاً ويؤخر أخرى، فهو لا يقدم قبل أنْ يتثبَّت لأنه يخاف الخطأ أو الوقوع في الفشل، وعلى العكس من ذلك، فإن "الروح" يقدم دومًا وقد يخطئ لكنه لا يتردّد.

فأكثر المكتشفات والمخترعات التي كان لها الفضل في بناء لبنات الحضارة الأولى، كان روّادها أصحاب أرواح مغامرة. فأول مَنْ حاول الطيران وهو "عباس بن فرناس" كان مغامرًا، و"كولمبس" رائد البحار ومكتشف القارّات كان من المغامرين الكبار، و"نيوتن" صاحب الجاذبية الكونية، و"أديوسن" صاحب أول مصباح كهربائي، وغير هؤلاء

مـن المكتشـفين والمخترعين إذا ما اسـتعرضنا حياتهم عرفنا أن "الروح المغامر"، هو كان دافعهم ومحرّكهم إلى اكتشـاف ما اكتشفوا أو اختراع ما اخترعوا. ثم ألمْ يكن "محمد الفاتح" فاتـح القسـطنطينية، صاحـبَ روح مغامـر وقف العقـلُ إزاء مغامراتـه حائرًا منكفئًـا عاجزًا بعقلانيته ومنطقيته عن تفسـير هـذا الحدث العظيـم، الذي غيّـر تاريخ العالـم فأصبح فتح "القسطنطينية" نهاية تاريخ وبداية تاريخ جديد؟

وقبـل ذلك ألم يكـن أولئك الرجال من الرعيل الأول من المسـلمين، مغامرين يحملون معهم "الإسلام" على صهوات أفراسهم التي كانت تنهب بهم الأرض نهبًا إلى مشارق الأرض ومغاربهـا، وإلـى مجاهيل من الأرض لم تطأهـا أقدامهم من قبل، وإلى بلدان وأقوام وشعوب ولغات، فلا يبالون من أجل ما يحملون من أمانة التبليـغ أن يقعوا على الموت أو أن يقـع الموت عليهم؟

ولمـاذا نذهـب بعيدًا ولنا هنا وبيـن ظهرانينا بعض نماذج مِـن فِعْـل أولئـك الرعيل الأول من المسـلمين؛ فبيننا شـباب مغامـرون يدفعهـم روحهم المغامر التّـواق المندفـع إلى ترك الحيـاة المرفَّهـة في صالونـات بيوتهم ذات الريـاش الفاخر، والزرابـي المبثوثـة، والأرائـك الوثيرة، والدفء الذي يشـيع الاسـترخاء في الأبدان... يترك أحدهم كُلَّ هذا ثم يغادر بيته غير آسف ولا حزين، ثم يضرب في الأرض بدافـع من شعور مؤرق بمسـؤوليته الإنسـانية والروحية نحو روح العالم الذي تحيـق بـه الأخطار مـن كل جانب، وتهدد جذوتـه بالانطفاء، هـذه الجـذوة التـي تسـتنير بهـا البشـرية وتعود إليهـا في كل مـرة من فـوق ظلمـات الأرض إذا ما زادت كثافتها وسـدَّت منافـذ الأنفـس والآفاق... فيذهب هـذا المغامـر متحديًا من أجل الرسـالة التـي يحملها لَأْواء الغربة والاغتراب، ومشـاق الأسـفار، وقساوة الأجواء، والصقيـع والجماد... وسرعان ما يتغلـب علـى كل هـذا بإرادته القويـة، وصبره الـذي لا ينفد، ويشـق طريقه بيـن الناس، ويكسـب ودَّهـم واحترامهم حتى يـكاد يغـدو معْلمًا من معالـم حياتهم، فيأخـذ بيدهم ليزرعوا معًا شـجرة الـروح الكبرى فوق أرضهم، ويسـقوها معًا بنبع روح الأنبيـاء والرسـل، وبالينبـوع الأعظم والأثرى لسـيدهم وخاتمهم محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم.

فالروحانيّـون -أي أصحـاب الأرواح الكبيـرة- هـم حركيّـون بطبيعتهـم، لا يطيقـون المكـوث والسـكون، وهم مغامرون تجذبهم الأبعاد، وتأخذهم المجاهيل، وتسـتهويهم الكشوفات... وربما كان مصطلح "الكشف" الذي يتردد أحيانًا على ألسـنة روّاد الروح الكبار مأخوذ من هذا النازع الكشـفي الذي ينزع بهم نحو الغوص في أعماق الروح، والذهاب إلى أقاصيها، واكتشـاف أصقاعها، وأماكن بعيدة فيها غير مكتشفة ولا معروفة من قبل... فكما للزمان أبعاد وأقاص وامتدادات، فكذلـك للـروح أبعاد وأقـاص وامتدادات لا تقـاس بالأمتار والأشـبار، ولكنهـا تقاس بعمق الحياة وكنـه الوجود. فالروح والزمان سيَّان، فكما أن الزمان حركة لا استقرار فيها، وامتداد لا توقـف فيـه، فالـروح كذلك في صعـود دائم، وفـي امتداد دائـم، لا يقـف عند حـدٍّ من الحدود، وإنْ كنا على شـيء من المعرفـة بحقائـق المكان غير أننا لا زلنا أكثـر ما نكون جهلاً ببواطـن الـروح، وبما يضاهيها من بواطـن الزمان. فأوجـع ما يوجـع الروحانـي أنْ يتحول مـع الأيام إلى شـخصية خامدة متعادلة متخلية عن جنوحها الاستكشافي وتطلعاتها الانفلاتية من حبوس الأمكنة، فينتابه من جرَّاء ذلك قلق روحي مرضي مفزع قد يتسـرب إلى جسـده فيوقعه صريـع المرض، لذلك فهـو دائم التعرض لذلـك الْمَدّ من الطوفـان المنبثق من بحر الروح، والذي يدفعه إلى الإبحار من النقطة التي توقف عندها إلى شـواطئ أبعد وأعمق، وإلى موانـئ أكثر بعدًا مهما كانت متناهية في خطورتها، فهذا هو قدره الذي يمسك بتلابيبه ولا يفلته إلى أنْ يقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

ولئـن كنّا قد أعظمنا من شـأن الروح هـذا الإعظام فلأننا نعظـم كذلـك من شـأن الحيـاة هـذا الإعظـام، وكل محاولة للفصـل بين الشـؤون الروحية والشـؤون الحياتيـة فهو إيذان تـام بمـوت الحياة وبموت الروح، سـواء ذلك فـي الأفراد أو الشـعوب والأمم... فكلما زادت الروح عنفوانًا زادت الحياة انفسـاحًا وعطاءًا وتوهّجًا وغبطة، حتى لتغتبط الحياة بالحياة، والإنسان بأخيه الإنسان. ■

(*) كاتب وأديب عراقي.

جمال أمين*

دراما الحياة

أرأيت الشمس يهصرها الذبول ثم يحرقها الأفول، ثم تذرو رمادها الظلامي على الكون الإنساني؟ إنها تنبعث بعناصرها انبعاثتها الكبرى، وتحترق عزائمها الجبارة في فجر يوم وليد جديد. أرأيت أرضًا جرداء صلعاء، تربتها قسمات وجه بئيس، جداولها الجافة شفاه متشققة ظماء، تحنو عليها السماء، فتتفجر من تربتها الحياة المزركشة؟

تلك صور الحياة في الكون أخا الإسلام، وفي المقابل تنحو منحاها صور الحياة في حياتنا البشرية، عقبات شتى تعترض طريق كل منّا في حياته الأرضية، مرة تشتد إلى أن تستدر منّا الدموع وتتفطر لها القلوب، ومرة تهون على الكواهل وكأنها النسيم الرخاء.

كما أن استقبالها يختلف بين تشتيت البشر، فالمنفصل عن الله تزيده غمًّا وسوداوية وحزنًا، وكلما انقذفت عليه كبكب بها في حفرة فلسفية أشد ظلامًا وأتعس مقامًا، أما المؤمن المتصل بالله فتزيده شكرًا وصبرًا وإيمانًا يستروح منها روح الله وقدره ورحمته الحانية ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾(البقرة:٢١٦).

وما أريد منك أخا الإسلام أن تورثك زلازل الحياة وقوارعها أي شعور بالقلق المدمر، واليأس الممض، فيضيق بها صدرك، وتستوقد في ضلوعك حزنًا أسيفًا وهمًّا حتميًّا، فاحتسبها عند الله واعتبرها شدة عسر تتبعها بشرى يسر... وتلك سنة الله، ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾(فاطر:٤٣).

وما حياة الإنسان؟ إنما ذلك الينبوع المائي يتفجر من ثنايا الصخر، ويسري في الأرض إلى أن يعانق مصيره (المسمى) في أعماق البحار. وبين البدء والمنتهى يقطع رحلة درامية تتمازج فيها ثنائيات البكاء والفرح، مرة يسير وانيا في المنبسط، ومرة يتموج في انعطافات الصخور الصلاب، ومرة يحدث وشوشة دامعة حين يعترضه عارض.

كذلك حياة الإنسان، ليست نعيمًا خالدًا، وليست جحيمًا دائمًا، ليست نسيمًا رخاء، وليست زمهريرًا قارصًا... إنها الحياة فحسب، خليط من كل هذه الثنائيات كما أرادها الله ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ۞ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾(النجم:٤٣-٤٤).

أخا الإسلام، إن خواطرك السوداء تتلجلج في نفسك الضعيفة كالغريق في أعماق اليمّ، وإن أحزانك اللاهبة تستوقد في ضلوعك نارًا حامية يتطاير شررها بين الفينة والأخرى، ولن تجد لك مخرجًا من هذه الأعصاير إلا باستحضار المعالم/التعاليم التي تعد لافتات نصّية مرشدة تنتصب قبالتنا في معترك الحياة لإنقاذ الحيارى الضائعين.

فقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ تضعنا أمام عنوان مفهومي "الاقتحام الجريء" بإلزام النفس أن تتجاوز كل المصاعب والمكاره راضية محتسبة.

وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ترسم لنا "طريق الاقتحام" بمشاعل فوقية حانية تنير العتمة وتكشط غشوة العماية.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾ تضعنا أمام عنوان "استمرارية الاقتحام" بإمدادنا بالوقود اللاهب المحفز لرفض النكوص في معترك الحياة.

إنها دراما الحياة، ولن تفك ألغازها المبهمة وكل مغاليقها الموصودة، إلا بتعاليم الإيمان الصابر المستبصر المكين. ■

(*) شاعر وأديب مغربي.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

الانبلاج الجديد

يا باكيَ العَينين،
يا رفيق البرد والصقيع
وحلْكةِ الليل البهيم...
في فراشك الأملس كنتَ تنعم،
وبلذيذ النوم كنتَ تأنس،
وإذا بعالَم مبحوح الصوت من حولك يرتفع،
وظلام منَ فوقك يغطّي الأفق،
حتَّى الدِّيَكة كفَّتْ عن الصياح،
وغاب السَحَر، وتلجلج الفجر وانكفأ،
وعلى نفسه انطوى،
ينتظر الانبلاج والشروق من جديد...

* * *

شعر

عبد الحميد العُمَري*

صَدى البُرْدة

يَـا صَفْـوَةَ الخلْقِ، يَا نُـورًا أَضَاءَ بِهِ ... رَبُّ العِبَـادِ عَلَـى الأَقْـوَامِ وَالأُمَمِ
أَكْـرِمْ بِـهِ مَوْلِـدًا زَانَـتْ بِطَلْعَتِـهِ ... هَذِي الثَّرَى، وَاكْتَسَتْ مِنْ حُلَّةِ الكَرَمِ
ضَـاءَتْ بِمَوْلِدِهِ الآفَـاقُ وَاعْتَنَقَتْ ... بُشْـرَى العَطِيَّةِ مَنْ في القُورِ وَالأَكَمِ
قَـدْ زَانَـهُ اللـهُ طِفْـلاً قَبْـلَ مَبْعَثِهِ ... بَيْـنَ الصِّحَـابِ، أَمِينًا غَيْـرَ مُتَّهَمِ
سَـامِي الْفِعَالِ سَلِيمَ الْقَلْبِ ذَا شَرَفٍ ... بَـادِي الفَضِيلَةِ يَوْمَ الرُّشْـدِ وَالحُلُمِ
أَعْـلاَهُ رَبِّي، فَـكَانَ الْخَيْـرُ يَغْمُرُهُ ... حَتَّـى أَفَاضَ بِـهِ لِلنَّاسِ فِـي حِكَمِ
أَوْحَـى لَـهُ اللهُ نُـورًا، فَاسْـتَنَارَ بِهِ ... مَنْ في الثَّرَى، وَهُدُوْا، في حُلْكَةِ الظُّلَمِ
لَمَّـا أَنَـارَ عَلَـى الدُّنْيَـا بِطَلْعَتِـهِ ... وَاسْتَنْشَقَ الدَّهْرُ عَرْفَ الْهَدْيِ وَالنِّعَمِ
نَادَى الْمُنَادِي بِصَوْتِ الْحَقِّ، أَسْمَعَهُ ... أَهْلَ الْبَصَائِرِ، مِـنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمِ
نَـادَى فَرَدَّ لِذِي بُكْمٍ لِسَـانَ صَدىً ... لِلْحَقِّ، وَاسْـتَمَعَتْ آذَانُ ذِي صَمَمِ
محمـدٌ مِنَّـةُ الرَّحمـنِ أَنْزَلَهـا ... غَيْثًـا فَأَنجـى بِـهِ قَوْمًا مِـنَ الْعَدَمِ
محمـدٌ نِعمَـةُ المولَـى أَزَالَ بِهـا ... عَنْ ذِي البِقَاعِ سَـوَادَ الظُّلْمِ وَالنِّقَمِ
محمدٌ شمسُ هَذا الكَوْنِ، مُذْ بَزَغَتْ ... فَاضَتْ عَلَى الخلقِ أَيْدِي الخيرِ وَالسَّلَمِ
يَا مُصْطَفَـى، بِكَ أَعْلَى اللـهُ رايَتَنَا ... فِي الأُفْـقِ خَافِقَةً وَالسَّـهْلِ وَالعَلَمِ
اِقْـرَأْ، تَعَالى الذِي أَوْحَـى إِلَيْكَ بها ... تُحْيِي القُلُوبَ، وَتُرْدِي الْجُبْنَ في الْهِمَمِ
اِقْرَأْ تَسُـدْ، وَتخلَّقْ تَسْـتَزِدْ شَـرَفاً ... وَاعْمَلْ يَدُمْ لَكَ مجدُ الدَّارِ، وَاسْتَقِمِ
اِقْـرَأْ، عَلَـوْتَ بها عَـنْ كُلِّ قَاصِمَةٍ ... لِلظَّهْـرِ فَاتِكَـةٍ، بِالحـزْمِ وَالحُـزُمِ
آتَيْتَنَـا بِكِتَـابِ اللـهِ مُنْتَصِبًـا ... يَهْدِي السُّرَاةَ، وَيحمِي كُلَّ ذِي ذِمَمِ
أَحْيَـى الْمَـوَاتَ بِغَيْثٍ وَابِـلٍ هَطِلٍ ... بَادِي الْمَنَافِعِ سَـامٍ مُسْـجَمِ الدِّيَمِ
مُسْـتَأْنَفِ الْجِدِّ، لاَ تَبْلَى محاسِـنُهُ ... عِتْقًـا، وَلاَ يَعْتَرِيـهِ الضَّعْفُ من قدمِ
فِيهِ الـدَّوَاءُ لأَهْوَاءِ القُلُـوبِ، فَكَمْ ... شَـفَى السَّـقَامَ وَكَمْ أَنْجَى مِنَ الأَلَمِ
وَكَـمْ أُرِيـدَ بِـهِ خَيْـرٌ لِذِي سَـقَمٍ ... فَـازْوَرَّ عَنْـهُ، فَعَضَّ السِّـنَّ مِنْ نَدَمِ

(*) أستاذ باحث في الأدب العربي / المغرب.

مصطفى بوزغيبة*

قيام الليل

وأثره الروحي في حياة الإنسان

إن المتأمل في فلسفة الدين، يجد فيه جمالية وحياة مفعمة بالحيوية والنشاط، فترفرف روحه في سماء المعارف الربّانية، والفيوضات الرحمانية، متأملة في جمال الكون، ومبتعدة عن هوس الحياة المادية وتطاحناتها اللامتناهية. ومن تلكم الأوقات التي يجد فيها الإنسان أنسه وضالته، "الليل"؛ فهو منتدى المحبّين وملتقى العشاق في سماء نجومه الساحرة.

فقد دأب العاشقون على إحياء الليل، فتراهم عند انسدال ستار الظلمة يُشمِّرون عن ساعد الجد، ينسجون من خيوط الظُلمة ورودًا من الودّ، ويُحوِّلُون وحشة الليل إلى أُنس وقُرب... فهم بذكر حبيبهم يتلذّذون، وبمناجاته يتنعّمون، وعن سواه لا يلتفتون. قال ابن المبارك:

إذا ما الليل أظلم كابدوه
فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا
وأهل الأمن في الدنيا هجوع[1]

وقال أحدهم: "لذة قيام الليل ليست من الدنيا في شيء، إنما هي من نعيم الآخرة، عجّلها الله لأوليائه"[2]. وفي هذا المعنى قال ابن النحوي في قصيدته المنفرجة:

وصلاة الليل مسافتها
فاذهب فيها بالفهم وجي
وتأملها ومعانيها
تأت الفردوس وتبتهج
واشرب تسنيم مُفَجِّرِها
لا مُمْتزِجا وبمُمْتَزِج

فلا غرو أن يحتل الليل عند المحبين مكانة عظيمة ومنزلة كبيرة، كيف لا وقد أقسم الله به في عدة مناسبات في القرآن الكريم؟! قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾(المدثر:٣٣)، وقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾(التكوير:١٧)، وقوله عز من قائل: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾(الانشقاق:١٧) وقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾(الفجر:٤)، وقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾(الشمس:٤). ويكفي الليل شرفًا وفخرًا أن الإسراء والمعراج لم يكن إلا في ظلامه. فقد أكرم الله تعالى فيه حبيبه محمدًا ﷺ بالدرر الفاخرة والمقامات العالية والمشاهدات العظيمة، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾(الإسراء:١).

ويكفيه شرفًا أن الله تعالى أنزل فيه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾(القدر:١).

أما عن فضائل قيام الليل فقد وردت آيات وأحاديث كثيرة، تُبين الخير العميم والنفع العظيم الذي يحظى به أهل الليل.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾(الإسراء:٧٩).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۞ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۞ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ۞ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۞ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾(المزمل:١-٦)، قال الرازي في التفسير الكبير: "واعلم أنه تعالى لما أمره (يقصد النبي ﷺ والخطاب موجه كذلك إلى أمته) بصلاة الليل أمره بترتيل القرآن حتى يتمكن الخاطر من التأمل في حقائق تلك الآيات ودقائقها (...) لأن النفس تبتهج بذكر الأمور الإلهية الروحانية، ومَن ابتهج بشيء أحب ذكره، ومَن أحب شيئًا لم يمرّ عليه بسرعة، فظهر أن المقصود من الترتيل إنما هو حضور القلب وكمال المعرفة"(٣).

لقد دأب العاشقون على إحياء الليل، فتراهم عند انسدال ستار الظلمة يُشمِّرون عن ساعد الجد، ينسجون من خيوط الظُلمة ورودًا من الودّ، ويُحوِّلُون وحشة الليل إلى أُنس وقُرب... فهم بذكر حبيبهم يتلذّذون، وبمناجاته يتنعّمون، وعن سواه لا يلتفتون.

ويقول مبيّنًا فوائد العبادة في الليل وثمارها على نفسية وروح الإنسان: "فإن الإنسان في الليلة الظلماء إذا اشتغل بعبادة الله تعالى وأقبل على ذكره والثناء عليه والتضرع بين يديه، ولم يكن هناك شيء من الشواغل الحسية والعوائق الجسمانية، استعدت النفس هنالك لإشراق جلال الله فيها، وتهيأت للتجرد التام، والانكشاف الأعظم بحسب الطاقة البشرية"(٤).

هذا وقد مدح الله تعالى عباده المومنين الذين مدوا حبال الوصل في الليالي الظلماء، والمستمدين من الأمداد الفيحاء، بقوله: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾(السجدة:١٦)، وقال: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾(الذاريات:١٧).

وأما ما ورد في الحديث من فضائل قيام الليل فكثير نكتفي بإيراد بعض الأحاديث على وجه التمثيل لا الحصر، قال ﷺ: "عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وإن قيام الليل قُربة إلى الله، ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء عن الجسد" (رواه الترمذي).

وعن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: "إن في الجنة لَغرفًا يُرى بطونها من ظهورها، وظهورها من بطونها"، فقال أعرابي: يا رسول الله لمن هي؟ قال: "لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وصلى لله بالليل والناس نيام" (رواه الإمام أحمد).

يقول محمد التهامي كنون: "واعلم أن في قيام الليل فوائد جليلة منها الاقتداء به ﷺ، فقد قام ﷺ حتى تورّمت قدماه وكانت دموعه تقع في مصلّاه كوكف المطر (...) ومنها أن في الليل ساعة لا يُوافقها عبد مؤمن يصلي يسأل الله شيئًا إلا أعطاه إياه وذلك عند السحر (...) ومنها أن النبي ﷺ ضمن لقائمه رحمةَ الله حيًّا وميتًا ومقبورًا ومبعوثًا، ففي الحديث: "يا أبا هريرة أتريد أن تكون رحمة الله عليك حيًّا وميتًا ومقبورًا ومبعوثًا، فقم من الليل وصلّ وأنت تريد رضا ربك، يا أبا

هريرة صلّ في زوايا بيتك يكون نور بيتك في السماء كنور الكواكب". ومنها أنه يطرد الداء عن الجسد، فقد ذكر الإمام الشعراني في الفلك المشحون عن الشيخ زكريا الأنصاري أنه كان يقول: "نسيم السَّحَر يُشفي السقيم". ومنها أنه يَظهَر على وجه قائمه بالنهار حسنٌ فائق وجمال باهر لقوله عليه الصلاة والسلام: "من كثرت صلاته بالليل حسُن وجهه بالنهار"، وقيل للحسن: ما بال المجتهدين من أحسن الناس وجوها، فقال: لأنهم خَلَوْا بالرحمن فألبسهم نورًا من نوره"[٥].

فأهل الله وجدوا في الليل لذة وحلاوة لو خُيروا بينها وبين نعيم الدنيا ما زادهم ذلك إلا تعلقًا ومحبة بالليل، كيف لا وهو موعد لقاء حبيبهم وبهجةِ روحهم وقرةِ عينهم. فمن علامات محبة الإنسان لربه كما يقول الغزالي: "أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه، فيواظب على التهجد ويغتنم هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق. وأقلُّ درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب والتنعم بمناجاته، فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألذَّ عنده وأطيب من مناجاة الله كيف تصح محبته؟ قيل لـ"إبراهيم بن أَدْهَم" وقد نزل من الجبل: من أين أقبلت؟ فقال: من الأنس بالله (...) وعلامة الأنس مصير العقل والفهم كله مستغرقًا بلذة المناجاة، كالذي يُخاطب معشوقه ويُناجيه، وقد انتهت هذه اللذة ببعضهم حتى كان في صلاته ووقع الحريق في داره فلم يشعر به، وقُطعت رِجْل بعضهم بسبب علة أصابته وهو في الصلاة فلم يشعر به، ومهما غلب عليه الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرّة عينه يدفع بها جميع الهموم (...) فالمحب من لا يطمئن إلا بمحبوبه. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(الرعد:٢٨)، قال: هشت إليه واستأنست به"[٦].

وقيل لبعضهم: كيف الليل عليك؟ فقال: ساعة أنا فيها بين حالتين، أفرح بظلمته إذا جاء، وأغتم بفجره إذا طلع، ما تم فرحي به قط. وقال علي بن بكار: منذ أربعين سنة ما أحزنني شيء سوى طلوع الفجر (...) وقال أبو سليمان: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا"[٧].

ومن شدة حبهم لهذه الفترة من الزمن، عابوا على من نام الليل، لأن فيه سوء الأدب مع الحضرة الإلهية. قال الفضيل بن عياض: "إذا لم تقدر على قيام الليل، وصيام النهار، فاعلم أنك محروم"[٨]، وقال الإمام القشيري: "ولهذا قال دلف الشبلي: نعسة في ألف سنة فضيحة (...) وقالوا في هذا المعنى:

عجبًا للمحب كيف ينام ... كلُّ نوم على المحب حرام

وقيل: المريد أَكلُه فاقة، ونومه غلبة، وكلامه ضرورة"[٩].

وقال أحد الصوفية:

كيف يسلوا من قد بلي ... عن هواه أو يغفل
قالوا إن كنت صادقًا ... فقم في الليل واسأل
إن في الليل ساعة ... لا تنمها يا غافل

بل يتمنون أن يطول الليل ولا ينكشف الصباح حتى يصيبوا من الأمداد والبركات، وينهلوا من الفوائد والتحف التي يذرها مولاهم، عسى تُشفي غليلهم وتروي ظمأ قلوبهم، وكلهم أمل وشوق في تجديد الصلة مع محبوبهم. يقول الشيخ أحمد عز الدين البيانوني (ت١٣٩٥هـ/١٩٧٥م):

كم قضينا في حماكم ... من ليال تتسامى
وعشقنا فيه ربعا ... وقبابًا وخياما
ونعمنا بوصال ... قد قضيناه غراما
وتلقينا المعاني ... لا نُؤديها كلاما
يا نجوم الليل غيبي ... واتركي الكون ظلاما
ودعينا في هوانا ... نتهاوى نترامى
قد نهلنا الحب راحا ... وشربناه مُداما
ما أُحَيْلاه وصالا ... ليته والله داما ■

(*) باحث بمركز الإمام الجنيد للدراسات والأبحاث الصوفية المتخصصة التابع للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

الهوامش

(١) إحياء علوم الدين، ٣٦٦/١.
(٢) أقرب المسالك إلى موطأ الإمام مالك، لمحمد التهامي كنون، ص:١٢٨.
(٣) التفسير الكبير، ١٦٠/٣٠.
(٤) التفسير الكبير، ١٦١/٣٠.
(٥) أقرب المسالك إلى موطأ الإمام مالك، ١٢٨.
(٦) إحياء علوم الدين، ٤١٤/٣.
(٧) إحياء علوم الدين، ٤٦٧/١.
(٨) سير أعلام النبلاء، ٤٣٥/٨.
(٩) الرسالة القشيرية، ٣٦٦.

د. سمير بودينار*

الدولة المدنية

كما مثلها عصر المبعث النبوي

"الحقيقة في نظر الإسلام هي بعينها تبدو دينًا إذا نظرت إليها من ناحية، وتبدو دولة إذا نظرنا إليها من ناحية أخرى". (محمد إقبال).

واحدة من المشكلات الرئيسة في منهج المعرفة، هي قضيةالمصطلحات وعلاقتها بالمفاهيم. وحين يتعلق الأمر بمنهج المعرفة الدينية المتصلة بقضايا الدين وقيمه وأحكامه، فإن هذه المشكلة تزداد حدة وتفاقمًا. ذلك أن مقتضى الفهم في هذا المقام، هو إدراك العلاقة بين مبدأ الدين وواقع الحياة، أو منهج استمداد الهدي الديني وتنزيل أحكامه وتعاليمه على القضايا المتصلة بحركة الحياة، تحقيقًا للغاية الدينية في واقع الإنسان والمجتمع بكل ما يحتويه من إشكالات وتعقيدات.

ولعل قضية الدولة في الإسلام عامة -سواء في نموذجها المعرفي والحضاري أو تجربتها التاريخية، والدولة المدنية خاصة وعلاقتها بمفهوم "الدولة الدينية"- هي أحد أوضح الأمثلة على حجم تلك المشكلة.

فما أكثر ما يُستخدم مصطلح الدولة المدنية اليوم،

وما أشد ما يُثار حوله من نقاشات وخلافات، دون أن نتوقف -إلا قليلاً- للتساؤل عن المفهوم. وهل الإشارة إلى صفة المدنية في الدولة تعني تمايزها عن الصفة الدينية حتمًا؟ وبأي دلالة للمدنية يتم استخدامها في نعت الدولة تحديدًا؟ أهو بالدلالة الفلسفية كما طرحه "الفارابي" في حديثه قبل خمسة قرون عن "السياسة المدنية"؟ أو بالدلالة الاجتماعية كما استخدمه "جون لوك" قبل ثلاثة قرون في حديثه عن "الحكومة المدنية"؟ أم أنه على خلاف هذا وذاك بالدلالة الحضارية التي قصد إليها الشيخ "محمد عبده" قبل قرن من الزمان وهو يكتب سلسلة مقالاته التي جمعت تحت عنوان "الإسلام بين العلم والمدنية"؟!

لعل ما يجعل مفهوم الدولة المدنية في التصور الإسلامي المعاصر مفهومًا إشكاليًا، هو تظافر عاملين أساسيين:

• أولهما: الإسقاط التاريخي لدلالة المصطلح كما تشكلت في الاستخدام خلال مرحلة معينة من مراحله، على شبكة المفاهيم الراهنة، باستخدام المصطلح التاريخي للدلالة على المفهوم المعاصر، في تجاهل لما اعترى هذه الدلالة من تغيرات، وما شهدته سيرة المصطلح من تطورات وتحولات، وكيف انتهت به التواضعات إلى مدلوله المعاصر أو مدلولاته.

• وثانيهما: استيراد المفهوم من بيئة حضارية أخرى وسياق معرفي وثقافي مغاير، جاهزًا محملاً بدلالاته وإيحاءاته، وتراثه ومشكلاته التي أنتجتها تلك البيئة وسياقاتها. ومن ثم استخدامه في المجال التداولي العربي والإسلامي، وكأنه مفهوم مطلق في دلالته، متجاوز لإشكالات نشأته الحضارية والتاريخية، قادر على التفسير في أي مجال لغوي أو بيئة اجتماعية أو سياق حضاري.

والحقيقة أن كلا الأمرين؛ الإسقاط التاريخي، والاستيراد الحضاري، إن هما إلا تقليد يدل على فقد القدرة على الاجتهاد في التجاوب مع الأسئلة المستجدة في أي عصر، والقضايا المشكلة على أهل كل مرحلة، وفقرٍ في أدوات الإبداع اللازمة لتحقيق ذلك التجاوب. وليس لنوع من التقليد في هذا المقام مزية على آخر، أكان تقليدًا للآخر الماضي، أم تقليدًا للآخر الحاضر.

لقد عبرت الدولة باعتبارها "البنية السلطوية للنظام السياسي" في السياق الحضاري الإسلامي عن الوحدة المعنوية للأمة، وعن مقومات وجودها الثلاث الضرورية لاستمرارها وهي الثقافي والاجتماعي والاقتصادي.

ينضاف إلى ما سبق عامل آخر للاضطراب، خاص بمنهج النظر إلى مفهوم الدولة وعلاقتها بالدين خاصة، وبكل ما له علاقة بمفاهيم الفكر السياسي في حضورها وإلحاحها على العقل المسلم اليوم، سواء بسبب عودة النقاش المتصل بالهوية والذات الحضارية الجامعة بقوة، وما يترتب عليهما من إشكالات في تدبير الاجتماع الإسلامي المعاصر، أو بسبب ضغط التحولات الجارية في ساحة المجال العام على امتداد عالم المسلمين بإلحاحها على الفكر الجمعي وإثارتها المشاعر على السواء.

لقد بات من الضروري اليوم، محاولة فض الاشتباك الحاصل حول مفهوم الدولة المدنية في مجالي التنظير والممارسة معا، وليس الباعث على ذلك هو الدافع الفكري فحسب، بل هي الآثار المترتبة في الواقع بوجه خاص عن ذلك الاشتباك، ما بين القول بأن المدنية في الدولة تعني مقابلاً/نقيضًا للصفة الدينية بكافة مستوياتها "الثيوقراطي" (Theocracy) الذي يتأسس على مفهوم الحكم الإلهي (حكم الآلهة) عند اليونان.. ومستوى المرجعية كذلك بالربط -بشكل شَرطي- بين مدنية الدولة وبين قطع أي صلة لها بالدين ولو كان ذلك في مستوى المرجعية، التي تعكس عادة هوية الدولة باعتبارها خلاصة لسياقها الاجتماعي وقيمها المؤسسة. هذا فضلاً عن بعض المعاني الخاصة للمدنية في الدولة كمقابل للعسكرية مثلاً.

ينطلق مفهوم الدولة الدينية في الفكر السياسي من نظريتين رئيسيتين هما: نظرية الطبيعة الإلهية للحاكم، القائمة على أنه يجسد الإله في شخصه، فيكون "الله" حينئذ حيًّا وسط الناس يحكمهم بنفسه، وهي نظرية لم تشع في التجربة التاريخية

للمسلمين كما هو حالها في الغرب خلال القرورن الوسطى، وإن كان هنالك استثناء مثّله الحكم الفاطمي الذي غلا في الإمامة حد التقديس الذي بلغ في بعض مراحله مبلغ تأليه الحاكم.

والنظرية الثانية الأكثر شهرة، هي نظرية الحق الإلهي، وخلاصتها أن الحاكم هو اختيار إلهي لا مجال لرد أمره أو التعقيب على حكمه، سواء تم ذلك الاختيار بشكل مباشر كما أكدت عليه الكنيسة في مرحلة صراعها كسلطة دينية مع السلطة الزمنية، أو بشكل غير مباشر من خلال القول أن الأفراد إنما يختارون الحاكم بشكل مسيَّر يجسد الاختيار الإلهي له.

ومن المعروف أن هذه النظريات وما ترتب عليها من استبداد باسم الدين، كان الباعث لظهور مفهوم الدولة المدنية في الغرب، وتطورالفكر الفلسفي والسياسي خلال ثلاثة قرون في اتجاه "نظرية الدولة المدنية" كما أصل لها "ميكيافيلي" منذ بداية القرن الخامس عشر، و"جون بودان" (Bodin) أواسط القرن السادس عشر، و"توماس هوبز" بداية القرن السابع عشر، و"باروخ اسبينوزا" أواخر القرن الثامن عشر، ثم "جون لوك" أواخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر الميلاديين.

مدنية الدولة

هذا في التجربة الحضارية الغربية، أما في السياق المجتمعي الإسلامي، فقد كان الاتجاه العام إلى تأكيد السمة الدينية للدولة. ومن هنا فالفقه السياسي حين يبحث في شرعية الدولة في الإسلام، فإنه يقيمها على دليلي التأسيس النبوي والإجماع التاريخي، حتى إنه لم يخالف في الوجوب الشرعي لإقامة الدولة وضرورتها فيما هو معروف تاريخيًّا سوى قلة قليلة جدًّا خرجت على الإجماع في هذا المجال، هي فرقة صغيرة من فرق الخوارج وواحد من علماء المعتزلة. وهكذا تبلورت نظرية الإمامة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين لدى الاتجاه العام للأمة، فيما يسميه الباحثون "النظرية السياسية الاتباعية" القائمة على مبدأ الإجماع كأساس للنظام السياسي ومصدر لشرعيته.

والمعنى هنا أن الشرعية هي للدولة كمؤسسة واجبة التأسيس والقيام بدورها دينيًّا، وحفظ مصالح المجتمع الكلية في أي عصر.

ولعل ملاحظة العلامة "الندوي" في رسالته الصغيرة والهامة "ردة ولا أبا بكر لها، أبو الحسن الندوي، مكتبة السداوي - المكتبة المكية ١٩٩٢"، تؤكد هذه الملاحظة حول الشرعية الدينية للدولة في الإسلام. وذلك حين أشار إلى أن المرتدين في عهد أبي بكر الصديق ﷺ لم يرفض كثير منهم الجوانب العقدية في الدين ولا شعائره التعبّدية، إنما كانت ردّتهم بالأساس رفضًا للاجتماع السياسي الإسلامي، ممثّلاً في واجبات المواطنة، والخضوع لسلطة الدولة المركزية بالمدينة، فيما يشبه ما يسمى في الاصطلاح المعاصر بـ"التمرد المسلح".

وللمتأمل أن يرى كيف استمر هذا الإجماع على الشرعية الدينية للدولة -بهذا المعنى- في مجتمعات المسلمين على مدار تاريخهم، وحتى نهاية الربع الأول من القرن الماضي، حين رأينا مثلاً، كيف كان الإجماع على تأكيد المبدأ، ونقض جمهور العلماء لأطروحة الشيخ علي عبد الرازق التي حاولت مخالفته، بالقول بعدم وجود أساس لشرعية الدولة في الإسلام، التي ضمنها سنة ١٩٢٥م كتابه الشهير "الإسلام وأصول الحكم".

غير أن هذه الشرعية الدينية الحاسمة لمؤسسة الدولة، لم تنسحب في الاتجاه العام للأمة على شخص الخليفة أو الأمير، بما لا يضفي على وضعه قداسة، ولا على قراراته وآراءه عصمة دينية. وهذا بوجه خاص، غاية ما قصدت إليه نظرية مدنية الدولة كما سبقت الإشارة، بما يحقق مشاركة الناس في تدبير الشأن العام من خلال التعبير عن آراءهم، وواجب الحاكم في استشارتهم والاستعانة بتلك الآراء، بل طلبه إياها منهم لعلمه أن ليس لرأيه عصمة دونهم، تمامًا كما نقرأ في الدعوة الصريحة للخليفة الراشد الأول ﷺ موجهًا كلامه لجمهور الأمة: "إن محمدًا قد مضى بسبيله، ولابد لهذا الأمر من قائم يقوم به، فانظروا وهاتوا آراءكم" (صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة).

لقد استخدم القرآن الكريم مادة الدولة في آية الفيء مطلع سورة الحشر: ﴿كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾. غير أن اللافت في سياق البحث عن مفهوم الدولة المدنية، أن نجد أن الوصف الذي يشير في الأصل اللغوي "مَدَنَ" إلى الاستقرار في المكان والتحضر فيه ليصبح "مدينة"، قد اقترن بتأسيس الدولة في الإسلام، حيث أطلق النبي ﷺ اسم "المدينة" على "يثرب" "مركز إقليم الدولة". ويروى عنه ﷺ أنه كان لا

يذكر كلمة "يثرب" قط، كما وردت روايات عن نهيه عن تسمية "المدينة" "يثربًا"، من قبيل ما رواه البخاري ومسلم: "يقولون يَثْرِبُ! وهي الْمَدِينَةُ"، والإمام أحمد: "من سمى المدينة يثربًا فليستغفر ثلاثًا". وما يروى عنه ﷺ من أنه دعى المسلمين جميعًا للالتحاق بها... وكانت تلك إشارة واضحة إلى السعي نحو إقامة النظام الحياتي والاجتماعي على مقتضى "المدينة".

ولعل هذا الأمر الجديد تمامًا بالنسبة للحياة في الجزيرة العربية، يوضح الفرق الجوهري بين مدلولي المدنية المشتق من المدينة في كل من السياق الإسلامي والغربي. ففي الأول هي تتويج لمسار التأسيس الذي تحكمه قيم الوحي المطلقة، وقوانين شريعته، وهكذا نشأت المدينة المنورة، ثم الكوفة ودمشق وبغداد والقاهرة وإسطنبول والقيروان وفاس... حواضر أصلية تتبعها مدن وأقاليم أخرى، وتستمد منها ثقافيًا وتشريعيًا وتنظيميًا، على أساس مرجعية ثقافية وحضارية حاكمة. أما في الثاني، فإن المدينة هي مصدر قيم الدولة، لأن هذه ناتجة عن وجود المدينة في الأصل، ولعل اشتقاق مفهوم الحضارة من كلمة "Civitas" الدالة على المدينة، يؤكد أنها ظلت طيلة مراحلها للكبرى في الغرب "الثلاث كما يفصل "لامبارد" (Eric Lam-bard) وهي: المدينة ما قبل الصناعية، والمدينة الصناعية، المدينة الميتروبوليتان ذات المركز والهوامش" نواة الحضارة ومصدر قيمها ومؤشر رقيها المدني. بينما هي في التجربة الحضارية الإسلامية تتويج لمسار التأسيس، بل إن ابن خلدون يعتبرها مؤذنة بانهيار العمران ونهاية عمر الدولة، لما يلازمها غالبًا من الترف الملهي عن واجبات الرسالة.

بعد تحديد مجال الدولة ومركز إقليمها "المدينة"، جاء العقد الدستوري مع صحيفة أو وثيقة المدينة التي مثلت نظامًا للعلاقات القانونية داخل الإقليم، بين السكان من المهاجرين والأنصار وغيرهم "مجموعة القرى والقبائل والحصون المسماة سابقًا يثرب"، بأبعاده الدستورية وامتداداته الأربعة، وهي: العلاقات الاجتماعية الجديدة " المؤاخاة، تنظيم العمل، التخصص، حملة التعليم". والنظام الاقتصادي "استعمال النقود، النهي عن المقايضة، المداخيل الجبائية القارة...". والرابطة السياسية "مرجعية الحكم، رئيس الدولة، رابطة المواطنة في إقليم المدينة...". والمقتضيات القانونية للسيادة وما يترتب عليها في العلاقات الخارجية "تنظيم العلاقات بين القبائل، اتفاقية الدفاع المشترك معها، مبدأ الانضمام إلى المعاهدات بعد توقيعها...".

> **إن الشرعية الدينية إنما تكون لمبدأ قيام الدولة والحفاظ عليها كمؤسسة، لا للأفراد الذين أسبغت عليهم صفات التقديس وحصانة التأييد الإلهي في التجربة التاريخية الغربية أساسًا، وهو ما يؤكد أن الديني والمدني اللذين صارا في العهد النبوي بناء واحدًا بالنظر إلى طبيعة النبوة المسددة بالوحي له ﷺ، قد تمايزا في غيره ﷺ بالضرورة.**

لقد كانت مرجعية الدولة إذن، مرجعية دينية أساسها مبادئ الوحي المنزل، ورئيسها هو النبي ﷺ، وإقليمها المركزي هو مدينته المنورة. بل إن بعض الباحثين يشير إلى التلازم الحاصل بين نزول الرسالة وفكرة الدولة حتى قبل الهجرة، وأن بعض مقدمات المطلب السياسي للدعوة الإسلامية تجلت في المرحلة المكية كذلك "مثلا: إريك وولف (Eric Wolf)، "التنظيم الاجتماعي في مكة وأصول الإسلام"، مترجمًا ضمن "أنثروبولوجيا الإسلام" للدكتور أبو بكر أحمد باقادر". وقد فصّل العلامة عبد الحي الكتاني في كتابه: نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، في كافة جوانب التدبير المدني للدولة في تفصيل عجيب للمؤسسات والمهام الأساسية والتفصيلية والاختصاصات والتكاليف.

لكن السؤال في كل ما سبق، هو عن التلازم بين الصفتين الدينية والمدنية في الدولة، وهل شرعية دولة الإسلام الأولى زمن المبعث النبوي تنسحب على السلطة الحاكمة في كل عصر؟ ولعل المدخل إلى الجواب يكون من النظر في الصفة التي حكم بها الرسول ﷺ دولة المدينة، أي الوصف الذي تولى به الإمامة، ومن هنا أهمية النظر في ما يسمى عند الفقهاء بتصرفات النبي ﷺ بالإمامة، أي باعتباره إمامًا للمسلمين ودولتهم، وهو مبحث يقصد من خلاله التمييز في تصرفاته ﷺ عامة، وهي "كل ما صدر عنه ﷺ من التدابير العملية في أمور الدين والدنيا سواء للاقتداء أولاً"؛ ما بين تصرفاته بالنبوة

وهـو "ما رسـم ليحتـذى"، وبيـن غيرها من أنـواع التصرفات الكثيـرة التي تعرض لتصنيفهـا الفقهاء منذ ابن قتيبة الدينوري في القرن الثالث الهجري في كتابه "تأويل مختلف الحديث"، حيـث ذكرت تلـك التصرفـات وأنواعها كما فـي كتاب العز بـن عبد السـلام "قواعد الأحـكام في مصالـح الأنـام". ولعل الفضل في معرفتنا بشكل دقيق ومفصل لهذا المبحث، يرجـع للإمـام القرافي في كتابـه المعلمة "الفروق". ففي تلك الكتب وغيرهـا تعديد لكثيـر من أنواع التصرفات النبوية من قبيل "ما كان منها برسم الرسالة، والفُتيا، والقضاء، والإمامة، والجبلية، والخاصـة..."، وتعديدهـم الأدلـة على ذلك، ومنها إشـاراته ﷺ إلـى ذلك بنفسـه، كما هو الحال فـي حديث أكل الضب، وحديـث تأبير النخل، حتى قال الإمام الطاهر بن عاشـور في كتابه "مقاصد الشريعة": "وقد كان الصحابة يفرقون بين ما كان من أوامر الرسول ﷺ صادرًا عن مقام التشريـع، وما كان صادرًا فـي غير مقام التشـريـع، وإن أشـكل عليهم أمر سـألوا عنه".

والخلاصة أنـه لا توجد حتى في النموذج المثالي للدولة في الإسـلام وهو الدولـة النبوية، أدنى علاقـة بمفهوم الدولة الدينيـة كما تبلور مـع نظريـة الطبيعة الإلهية للحاكم أو نظرية الحق الإلهي، ومصداق ذلك هو هذا التمييز الدقيق بين أنواع التصرفـات النبويـة، الذي تحـدث عنه العلمـاء، مفصلين في سـمات التصرفـات بالإمامـة وهي أنها من قبيل "التشـريعات الجزئيـة" كمـا يقـول ابن عاشـور، وأنهـا مرتبطـة بالمصلحة العامـة، وأنهـا اجتهادية مرتبطة بما يناسـب الزمـان والحال، وأنها واردة في غير الأمور الدينية المحضة.

وعليـه فإن الشـرعية الدينيـة إنما تكون لمبـدأ قيام الدولة والحفـاظ عليهـا كمؤسسـة، لا للأفراد الذين أسـبغت عليهم صفات التقديس وحصانة التأييد الإلهي في التجربة التاريخية الغربية أساسًـا، وهو ما يؤكد أن الديني والمدني اللذين صارا في العهد النبوي بناء واحدًا بالنظر إلى طبيعة النبوة المسـددة بالوحي له ﷺ، قد تمايزا في غيره ﷺ بالضرورة، وهو تمايز لا يمس شـرعية الدولة في مجتمـع المسـلمين في شيء، باعتبار الشـرعية مركـزة في مبدأ قيام الدولـة وتحقيقها مقاصد الدين وسياسة حياة الناس بما يصلحها في كل عصر.

وهكـذا تتجـاوز الدولـة إشـكالية الصـراع بين السـمتين الدينيـة والمدنيـة، علـى اعتبار الأولـى مركزة فـي مرجعيتها المحـددة لرسـالتها وقيمهـا ومقاصدها الكبرى، بينمـا الثانية متصلة بطبيعة السلطة السياسية الحاكمة فيها، وطبيعة قراراتها وبرامج إدارتها وسياساتها في كل عصر.

لقـد عبـرت الدولـة باعتبارهـا "البنيـة السـلطوية للنظـام السياسـي" فـي السـياق الحضـاري الإسـلامي عـن الوحـدة المعنويـة للأمـة، وعن مقومـات وجودها الثـلاث الضرورية لاسـتمرارها وهـي الثقافـي والاجتماعي والاقتصـادي، التي تمثـل الدولة من خلالها الأمة/المجتمـع، وتجسـد مصالحها وتيسر لها أداء رسالة شهادتها على الأمم.

وهـذا ما به العبرة من شـكل الدولـة وهويتها في عصرنا، أي أن تقـوم بأدوارها في التعبيـر عن الأمة/المجتمـع، فتكون شكلاً قانونيًّا يعبر عنه فعلاً، فتتسق مـع مسار توحيده، وتعمل علـى تعضيـد ارتباطه بمجالـه المجتمعي الأوسـع، وتحمي كيانه من المخاطر، وتيسـر له أداء أدواره التي لا يمكن لغيره القيام بها بما في ذلك مؤسسة الدولة نفسها، فتحفظ عليه بهذا حياته وفعاليته، وتنظم حقوق أفراده.

أمـا هذا الصراع المفتعل بيـن الدينية والمدنية في الدولة، فقـد أحسـن أحـد العلمـاء المعاصريـن "المستشـار طـارق البشـري" "في الجدل حول: المدنية والدينيـة"، مقال بجريدة الشـروق (٢٠١١/١١/٧): "إذ شـبّهُهُ بالصـورة الشـعرية التي أوردهـا مولانـا "جلال الدين الرومي" وهـو يحكي في ديوانه "المثنوي" عن قصة أستاذ طلب من تلميذه "الأحول" أن يأتي لـه بإبريق المـاء الخاص به، ولكـن التلميذ نظـر إلى الإبريق فصـوّره الحَوَل لـه أنه إبريقان اثنان، واحتـار في اختيار أيهما يحمـل، ثم هداه فكره أن يكسـر أحدهمـا ويأخذ الآخر، فلما كسـر أحد الإبريقين لم يجد الآخر... ثم استطرد معلقًا: يبدو لي أن هذا تقريبًا ما نصنعه الآن في حديثنا العجيب عن مدنية الدولـة أو دينية الدولة، ونتسـاءل ونختلف فـي دولة دينية أو مدنيـة، ونظنهما دولتين نختار بينهما، بينما هما شـيء واحد، ونحن إذا حطّمنا ما نظنه واحدة منهما فلن نجد الأخرى".

لكـن أنـى لنا تجاوز هـذه الظنـون، والوصـول إلى وعي مشـترك بمفاهيمنـا وقضايانا الكبرى، في حـرص على تقوية الإجماع حولها، وتوسـيع دائرة التوافق على المشـترك، دون إدراك الطريق إلى "الوعي الجمعي"؟! وتلك قضية أخرى. ■

(*) مدير مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - وجدة / المغرب.

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين عن:

Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş

İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز

مصطفى طلعت قاطيرجي أوغلو

المشرف العام

نوزاد صواش

nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير

هانئ رسلان

مدير التحرير

أجير أشيوك

المخرج الفني

مراد عرباجي

المركز الرئيس

HIRA MAGAZINE

Kısıklı Mah. Meltem Sok.

No:5 34676 Üsküdar

İstanbul / Turkey

Phone: +902163186011

Fax: +902164224140

hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع

٧ ش البرامكة - الحي السابع - م.نصر/القاهرة

تليفون وفاكس: 5-20226134402+

الهاتف الجوال : 201004871038+

جمهورية مصر العربية

نوع النشر

مجلة دورية دولية

Yayın Türü

Yaygın Süreli

الطباعة

رقم الإيداع

١٨٧٩-١٣٠٦

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلًا أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي،
أمام الجامعة القديمة
Phone: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 27

SUDAN
مركز دار النيل، مكتب الخرطوم
أركويت مربع 48 منزل رقم 31 - الخرطوم - السودان
Phone: 0024 999 559 92 26 - 0024 915 522 24 69
hirasudan@hotmail.com

JORDAN
شركة زوزك/شميساني شارع عبد الحميد شرف، بناية رقم:61
عمان/الأردن.
Phone: +962 656 064 44
GSM: +962 775 935 756
hirajordan@woxmail.com

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

MAURITANIA
Phone: +2223014264

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton,
NJ, 07011, USA
Phone:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
الوطنية للتوزيع
Phone: +966 1 4871414
المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع
الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار
ص.ب: 68761 الرياض: 11537
الجوال: 00966504358213
saudia@hiramagazine.com
abdallahi7@hotmail.com
Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

EGYPT
٣٧ شارع د. عبد الشافي محمد - الحي السابع، مدينة نصر - القاهرة.
هاتف: 201065523089+ - 201119482609+
hiraegypt@gmail.com

SYRIA
GSM: +963 955 411 990

الزمن والوقت

نصوص ومفاهيم مؤسسة على الرؤية الكونية

لفكر الأستاذ فتح الله كولن

د. محمد باباعمي

- مفهوم الزمان في الفكر الكوني لفتح الله كولن..
- القوى الزمانية الثلاث: استخداماتها في التشكيل الحضاري.. والبناء العقلي.. والانبعاث الوجداني والروحي..
- مفهوم الزمن.. كوجود احتوائي لوجود الكون والإنسان..
- الارتباط المصيري بين عقل الإنسان وعقل الزمن..
- آثار مفهوم: الخلود والزوال.. البقاء والفناء.. الأبد والأزل.. في نتاجات فكر "كولن"..

مركز التوزيع فرع القاهرة : ٧ ش البرامكة، الحي السابع، مدينة نصر – القاهرة / مصر

تليفون وفاكس : 5-20226134402+ الهاتف الجوال : 201000780841+

www.daralnile.com

دار النيل

تركيا: ٦ ليرات • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولار • المملكة العربية السعودية: ١٢ ريال سعودي • اليمن: ٣٧٥ ريال يمني • المغرب: ٢٠ درهم • الجزائر: ٢٥٠ دينار

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

طوعا لا كرها

حشود بلا غاية تائهون،
في شِباك الحيرة يتخبطون،
لا فكرَ ينجُم في أراضيهم القاحلة،
ولا إلهامَ يظلل بساتينهم الجرداء،
ويكأنّ الخطوبَ نحو المحراب تسوقهم،
في المحطة الأخيرة حيث الأزمات مدلهمّة..

* * *

ISSN 1306-1879
39
www.hiramagazine.com